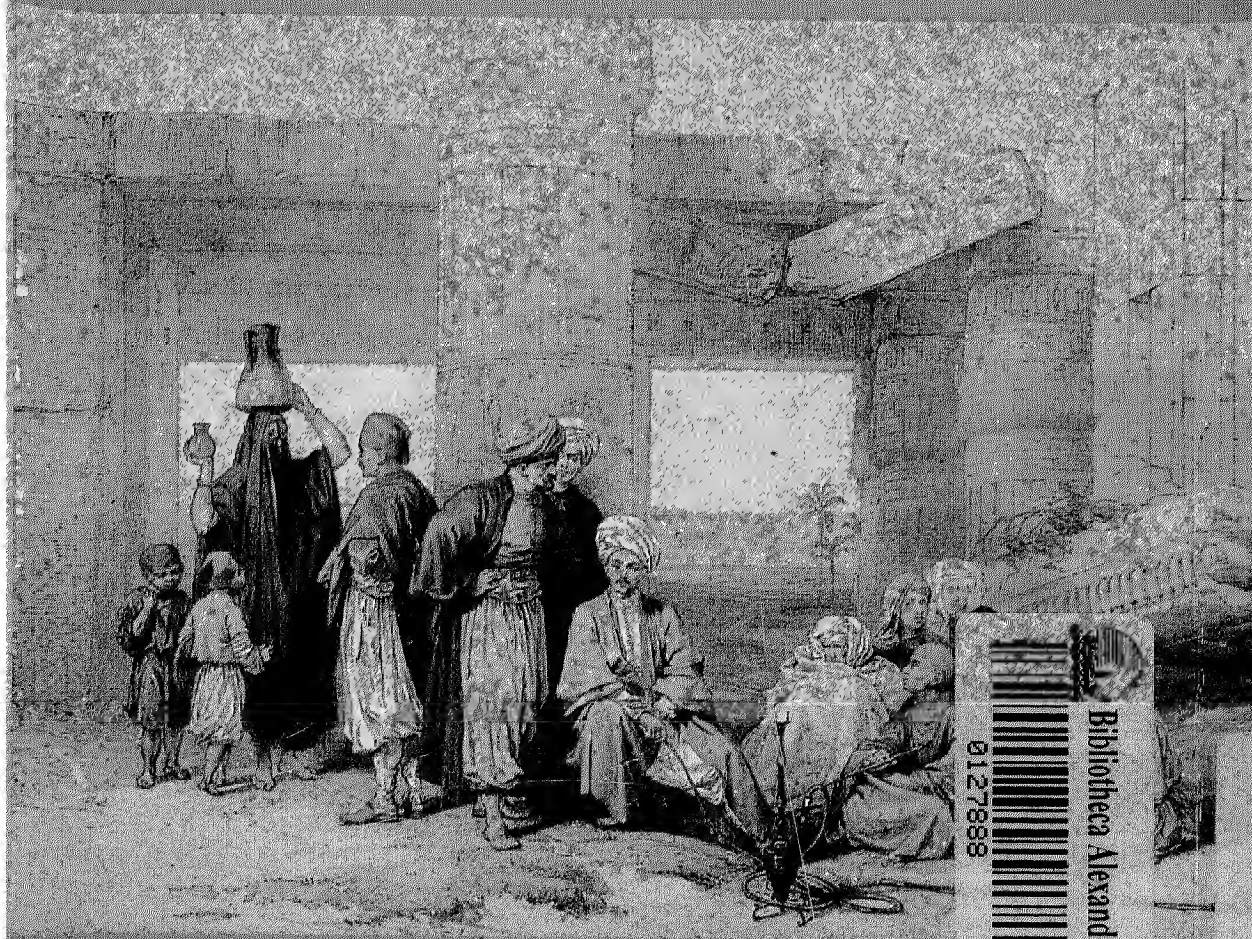
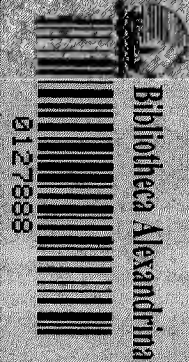


الكتاب
٢١٤

رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر



أشرف على اعداد هذه الطبعة وقدم لها
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام

الدكتور/ سمير سرخان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادي

المشرف الفني العام

محسنة عطية

رحلة عبد اللطيف البغدادى ف مصر أو

كتاب الإفادة والاعتبار
فى الأمور المشاهدة والحوادث المعانيمة بأرض مصر

أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الطبعة الثانية



المكتبة المصرية العامة للكاتب

١٩٩٨

هذه طبعة جديدة من كتاب الافادة والاعتبار
فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
لعبد اللطيف البغدادى • وقد أعدت من الطبعة السابقة
التي أشرف على اصدارها سلامة موسى وتولت طباعتها
المجلة الجديدة ومجلة المصرى •

فهرس

الموضوع	الصفحة
دراسة رحلة عبد اللطيف البغدادي وتحقيق أهم ما ورد بها	٧
مؤلفات البغدادي الأخرى والمراجع التي تناولته	٣٣
من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة	٣٥

المقالة الأولى

الفصل الأول	
في خواص مصر العامة	٥٥
الفصل الثاني	
فيما يختص به من النبات	٦٠
الفصل الثالث	
فيما يختص به من الحيوان	٨٠
الفصل الرابع	
في اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة	٨٩
الفصل الخامس	
فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن	١١٣
الفصل السادس	
في غرائب أطعمتها	١١٨

المقالة الثانية

الفصل الأول	
في النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك	١٢٥
الفصل الثاني	
في حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة	١٣٢
الفصل الثالث	
في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة	١٤٣
كشفاف	١٥٣

دراسة رحلة عبد اللطيف البغدادي

وتحقيق أهم ما ورد بها

يعد هذا النص الذي بين أيدينا من أهم ما قدمه لنا الرحالة العرب عن مصر ، فهو نص علمي بكل معاني الكلمة ، وترجع أهمية هذه الدراسة التي نقدم بها للرحلة ، الى أنها تعطي لكتابات البغدادي طعما وتقرب معانيه للقارئ المعاصر ، كما تضيف على نص الرحلة أبعادا عميقة في نقاط بعينها كان يمكن أن يمر عليها القارئ العادي مروراً عابراً • ولم نتعرض في هذه الدراسة لكل ما نريد توضيحه ، وإنما اكتفينا بنقاط جوهرية ، وتركنا الباقي للتعليقات المفصلة التي ذيلنا بها صفحات الرحلة ، وهي تعليقات وشروح تربو على السبعين تعليقا وشرحا •

ويطالع القارئ في هذه الدراسة عن رحلة البغدادي (أنهى كتابتها سنة ٦٠٠ هـ) ، تحليلا لما جعلنا له عناوين فرعية كالتالي :

- المصريين ، أعراقهم وتعدادهم •
- عقيدة الحج الى أهرام مصر •
- لم يرد ذكر للأهرام في التوراة •

- المصريين وأكل لحوم البشر •
- النباتات •
- عن عالم الحيوان فى مصر •
- سر اختفاء التمساح •
- البغدادى والوصف الجغرافى •
- مكانة البغدادى بين الرحالة العرب •
- رحلة البغدادى تفسر بعض التعبيرات الشعبية المعاصرة •
- مؤلفات البغدادى الأخرى والمراجع التى تناولته •

المصريون ، أعراقهم وتعدادهم

نورد لنا رحلة البغدادى هذه كثيرا من المعلومات التى تفيدنا فى تحديد أعراق المصريين المعاصرين ومعسرة العلماء التى تسرى فى عروفتهم . فهو عندما يحدثنا عن جفاف النيل أو انخفاض مستوى مياهه انخفاضاً هائلاً ، وما صاحب ذلك من مجاعة وقحط شديدين حتى أكل بعض الناس بعضهم الآخر ، وأكلوا الميتة حتى التى صارت رميماً ، إنما هو فى الواقع لا يحدثنا عن الممالك التى جلبهم بنو أيوب أو بقايا الممالك من عصور سابقة (١) وإنما يحدثنا عن المصريين الأصليين ، سواء منهم من صار مسلماً أم ظل على مسيحيتهم ، فهؤلاء هم الذين عز عليهم الطعام ، بالإضافة لمصريين آخرين من أصول حبشية أو سودانية . أما ممالك بنى أيوب وغيرهم ، فقد كانت الأرزاق تصلهم من مناطق العالم الإسلامى غير المنكوبة ومن مخازن الدولة . لكن كرم الملك المسادل وممالكه لم يظهر بشكل واضح إلا فى التبرع بالأكفان ، اذ يذكر لنا ابن تغرى بردى فى كتابه الشهير (حسن المحاضرة) أنه كفن فى هذه السنة (٥٩٧ هـ) من ماله ٣٠٠٠٠٠ من الغرائب ، والمقصود هنا أهل مصر الذين هربوا من المجاعة الى القاهرة (يستخدم البغدادى لفظ مصر ليقصد به سكان الصعيد والدلتا ، أما القاهرة أو مصر القاهرة فيقصد بها العاصمة - المدينة المعروفة) ووزع بعض ماله على ذوى البيوتات والمساكين .

واذا علمنا أن هذه المجاعة التى خربت بسببها مصر بحيث لم يصبح فى قرى بأكملها نفس واحدة ، لم تكن هى

(١) لا نقصد كما لا يخفى على فطنة القارئ عصر الحكم المملوكى الرسمى الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م (القرن الثالث عشر للميلاد) وإنما نؤكد هنا أن الوجود المملوكى وانتشار هذا العنصر وحكمهم مصر بشكل غير مباشر يعود على الأقل للقرن التاسع للميلاد .

الوحيدة في التاريخ المصري ، وإنما حدثتنا كتب التاريخ بإيجاز عن فحط مشابه سنة ٣٩٠ هـ (الدولة الطولونية) وعن شدة أكلت الأخضر واليابس وراح فيها خلق كثير زمن الدولة الفاطمية عرفت بالشدة المستنصرية - اتضح لنا أن العنصر المصري الأصلي تعرض لهلكة شديدة ، ومع أن البغدادي قدم لنا وصفا مفعما بالحياة للمجاعة الناتجة عن هبوط النيل هبوطا شديدا في أواخر أيام الدولة الأيوبية ، إلا أنه من المفيد ذكر ما أورده بعض المصادر الأصلية الأخرى ، وقد اخترنا أن ننقل من حوليات ابن تغري بردي في كتابه (حسن المحاضرة) عن هذه المجاعة ، لأنها ضبطت الحوادث بالسنوات بشكل دقيق :

حوادث سنة ٥٩٧ هـ : « وفيها كان هبوط النيل ولم يعهد ذلك في الاسلام الا مرة واحدة زمن الفاطميين ، ولم يبق منه الا شيء يسير وعم الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس الى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق .. »

قال أبو المظفر : « كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه ونسيه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس اليه الى منزله ليضيئه فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك فكانوا يذبحونهم ليصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها . وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم . وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفا ، وامتلات طرقات المغرب والمشرق والحبشة والشام برمم الناس ، ووصل الى امام جامع الاسكندرية في يوم ما يزيد على ٧٠٠ جنازة . وقال العلماء الكاتبة الأصهباني : وفي سنة ٥٩٧ هـ : اشتد الغلاء وامتد البلاء وتحققت المجاعة وتفرقت الجماعة وهلك القوى فكيف الضعيف ! ونحف السمين فكيف العجيف ! وخرج الناس حذر الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر في الأمصار ، ولقد رأيت الأراذل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم ، تستترق الجياع بالكمام .. »

قال : وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد هدمت بنيان مصر ، فمات تحت الهدم خلق كثير ، ثم امتدت الى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم تبق منها جدارا الا حارة السمرة (السمرة والسامرة قوم من اليهود من قبائل بني اسرائيل يخالفون اليهود في بعض احكامهم كانوا زعماء نبوة من جاء بعد موسى عليه السلام وقولهم لا مساس وزعمهم ان نابلس هي بيت المقدس) ومات تحت الهدم ٣٠٠٠٠ وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل وامتدت الى دمشق فسقط بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق ، واكثر الكلاسة والبيمارستان النوري ، وعامة دور دمشق الا القليل ، فهرب الناس الى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر (قبلي جامع دمشق) .

أمر النيل سنة ٥٩٨ :

الماء القديم ذراع واحدة واربع عشرة اصبعاً . مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون اصبعاً . ومن الامور التي تسترعى الاهتمام ان البغدادى ميز لنا بين طعام العوام (المصريين الاصليين) وطعام الخواص (المماليك والرؤساء) فالأطعمة التي تدخل فيها المذموم بشكل واضح خاصة ما يسمى (رغيف الصينية) المحشو باللحم المدقوق واللوز والفستق والسكر وماء الورد والمقلو بزيت السيرج . . الخ هي من أطعمة الخواص .

اما العوام فيأكلون الملوحة (يسميها البغدادى الصحناء) والخبز والتين الشوكى (يسميه البغدادى الصبر بكسر الصاد) ويشربون البوظة ، ويأكلون فيران الغيط (نوع من الارانب ويسمونها الفيران البيضاء) ، ويصنعون من البطيخ الأخضر نوعاً من النبيذ .

عقيدة الحج الى اهرام مصر

عندما يقول لنا البغدادى ، انه قرأ في بعض كتب الصابئة القديمة « ان احد هذين الهرمين هو قبر غاذيمون والآخر هو قبر هرميس ويؤمنون انهما بنيانان عظيمان وان

غاذيمون (أو اغاذيمون) أقدم وأعظم ، وأنه كان يحج إليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض ٠٠٠ » ٠٠ أقول أننا عندما نستمع الى ذلك من البغدادي بالذات ، فلا بد أن نتنبه ونستوقف لأن البغدادي ولد في بغداد وعاش شطرا كبيرا من حياته فيها ، حيث طوائف الصابئة التي كان لها وجود على أيامه ، بل ولا زالت موجودة حتى الآن ٠ وقد أوردنا نقولا طويلة في الحاشية تعليقا على ذلك من كتاب ابن حزم الظاهري فليرجع إليها من يشاء ، أما هنا فلا بد أن نذكر أننا نلمح شبهة فعلا بين الحكم المنسوبة الى هرميس ، والحكم التي تطالعنا في الكتب التي تتعرض لحكم الفراعنة ونصائحهم ٠ وقد جعل الشهرستاني في كتابه الشهير (الملل والنحل) الصابئة كأصحاب عقائد مغايرين للحنفاء (الموحدين الأوائل) وأجرى بين الطائفتين حوارا طويلا ٠ والطريف أن الشهرستاني نفسه يذكر لنا أنه لا يستطيع أن يقول كل ما يعرفه عن هرميس والصابئة والحنفاء ، فيذكر لنا عبارة غامضة تؤثر نقلها كما هي :

« وكان في الخاطر بعد زوايا نريد نملها ، وفي القلم خفايا أكاد أخفيها ، فعدلت عنها الى ذكر حكم هرمس العظيم ، لا على أنه من جملة فرق الصابئة ، حاشاء ، بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء في اثبات الكمالات في الأشخاص البشرية ، وإيجاب القول باتباع النواميس الالهية ، على خلاف مذاهب الصابئة » (١) ٠

لكن الصابئة أنفسهم يعظمون هرميس وينسبون اليه ، بصرف النظر عن قول الشهرستاني الذي اعترف هو نفسه أنه لا يستطيع أن يصرح بكل ما عنده ٠ ومن حكم هرميس (أو هرمس) ما يتجلى من خلال حواراته التالية :

« ٠٠ سئل : بماذا يحسن رأى الناس في الانسان ؟ قال : بان يكون لغاؤه لهم لقاء جميلا ، ومعاملته اياهم معاملة حسنة ٠ »

(١) الشهرستاني ، أبو الفتح محمد ، الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٤

(طبعة دار المعرفة - بيروت) ٠

وقال : مودة الاخوان أن لا تكون لرجاء منفعة ، أو لدفع مضرة ، ولكن لصالح فيه ، وطباع له •

وقال : أفضل ما في الانسان من الخير العقل • وأجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه : العمل الصالح • وأفضل ما يحتاج اليه في تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل • وأوثق الاسرار الحرص •

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصديق في الغضب ، والوجود في العسرة ، والعفو عند المقدرة •

وقال : من لم يعرف عيب نفسه ، فلا قدر لنفسه عنده •

وقال : الفصل بين العاقل والجاهل : أن العاقل منطق له ، والجاهل منطق عليه •

وقال : لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة أقوام : السلطان ، والعلماء ، والاخوان • فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالاخوان أفسد عليه مروءته •

وقال : الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس •

وقال : المرء حفيظ له أن يطلب الحكمة ويشبثها في نفسه أولا ، بأن لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار ، ولا يأخذ الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعير أحدا بما هو فيه ، ولا يغيره الغنى والسلطان ، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ، ودينه ما لا يختلف فيه ، وحجته ما لا ينتقض •

وقال : أنفع الأمور للناس الفناعة والرضى • وأضرها الشر والسخط • وإنما يكون كل السرور بالقناعة والرضى ، وكل الحزن بالشر والسخط •

ويحكي عنه فيما كتبه : أن أفضل الضلال والهلكة ، لأهله ،
أن يعد ما في العالم من الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه •
ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكائده •
ومن افتري على أخيه فرية لم يخلص من تبعثها حتى يجازى
بها • فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل أن يجعله
سببا للشرور وهو معدن الخير ؟

وقال : الخير والشر واصلان الى أهلهما لا محالة •
فطوبى لمن جرى وصول الخير اليه وعلى يديه ، والويل لمن
جرى وصول الشر اليه وعلى يديه •

وقال : الاخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان ، أحدهما
محبة المرء نفسه في أمر معاده ، وتهذيبه اياها في العلم
الصحيح والعمل الصالح • والآخر : مودته لأخيه في دين
الحق ، فان ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده ، وفي
الآخرة بروحه •

وقال : النضب سلطان الفظافة ، والحرص سلطان
الفاقة ، وهما منشأ كل سيئة ، ومفسدا كل جسد ، ومهلكا
كل روح •

وقال : كل شيء يطاق تغييره الا الطباع ، وكل شيء يقدر
على اصلاحه غير الخلق السوء ، وكل شيء يستطاع دفعه
الا القضاء •

وقال : الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش
للبدن ، لأن هذين خلاء النفس ، وهذين خلاء البدن •

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض : لسان
صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة •

وقال : ادحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض
حجته •

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ،
فدينه دين الله عز وجل وخصمه شاهد له يفلج حجته ، ومن
كان دينه الاهلاك والفظاظة والأذى ، فدينه دين الشيطان ،
وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه .

وقال : الملوك تحتمل الأشياء كلها الا ثلاثة : قدح في
الملك ، وافشاء للسر ، وتعرض للحرمة .

وقال : لا تكن أيها الانسان كالصبي اذا جاع ضغا (١) ،
ولا كالعبد اذا شبع طغى ولا كالجاهل اذا ملك بغى .

وقال : لاتشيرن على عدو ولا صديق الا بالنصيحة .
فأما الصديق فتتقضى بذلك من واجبه حقه ، وأما العدو فانه
اذا عرف نصيخته اياه هابك وحسدك . وان صبح عقله
استبحى منك وراجعك .

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ،
وعلى غريزة الورع الصدق عند الشرة ، وعلى غريزة الحلم
العفو عند الغضب .

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعاونتهم اياه ،
وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم .

وقال : لا يستطيع احد ان يتجاوز الخير والحكمة ، ولا أن
يخلص نفسه من المأايب الا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ،
وولي ، وصديق . فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله
الصالح .

وقال : كل انسان موكل باصلاح قدر باع من الارض ،
فانه اذا اصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها ، واذا
أضاعه أضاع الجميع ، وقدر ذلك نفسه .

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله •

وفال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقا ، والجاهل عالما ، والفاجر برا •

وقال : الصالح من خيره خير لكل أحد ، ومن يعد خير كل أحد لنفسه خيرا •

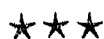
وقال : ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل • ولا بنور ما لم يمحى الظلمة • ولا بطيب ما لم يدفع الثمن ، ولا بصديق ما لم يدحض الكذب ، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح •

ويعد الشهرستاني طوائف عديدة للصائبة ولا يجعلهم فرقة واحدة ، فمنهم أصحاب الهياكل ، والمقصود الهياكل التي يشيّدونها للكواكب السيارة ، وقد اهتموا اهتماما شديدا بالصور والتماثيل والأيقونات التي ترمز لأرباب بعينها ، أما الله سبحانه فيسمونه رب الأرباب أو اله الآلهة ، ومنهم أصحاب الأشخاص الذين أقاموا الهياكل لكن ليس للكواكب ، وإنما لأشخاص يقربونهم لرب الأرباب •

وقد أوردنا فيما سبق مقتبسات طوالا تنسب لهرمس (هرميس) الحكيم الذي يوقره الصائبة ، الذين لا زالوا - كما سبق القول - يحتلون مكانهم على الخريطة الدينية للعالم ، والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى :

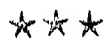
« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) وإشارة القرآن الكريم هذه تدل على أن الصائبة كانوا في وقت من الأوقات من أصحاب المعتقدات الصحيحة ، ثم تلوّث معتقداتهم بالشرك وعبادة الكواكب وعبادة الأوثان •

ولعلنا نكون قد ففتحنا بإيرادنا هذه النصوص في هذا السياق بابا للمهتمين بدراسة العقائد المرتبطة بأهرام مصر ، وفتحنا بابا آخر للربط بين المصادر الإسلامية والمصادر الآثارية في هذا الموضوع المهم ، الذي لا نستطيع أن نثبت فيه وإنما أمر ذلك لمن هو أدق تخصصا وأعمق نظرة .



ويحدثنا قاموس الكتاب المقدس في مادة هرماس أنها صيغة من صيغ الآلهة هرميس . وقد ورد كاسم لأحد سكان روما المسيحيين ، أرسل إليه بولس سلامه ، بل لقد نسب إليه الأبناء الأولون نتيجة السفسر المتروكف براءى هرماس الذي يحتوى على رؤى وأمثال ووصايا ٠٠ ونقرأ في مادة هرمس في القاموس نفسه أن بولس وبرنابا عندما عملا بعض العجائب (المعجزات) ، ظنهما الناس الآلهين التائهن هرمس وزفس وقدم الشعب اليهما الذبائح ، إلا أن بولس نهاهم عن ذلك وأكد أنهما بشر مثلهم .

نحن اذن اذاء شخصية وردت في التراث الاسلامى ، ولها وجود في التراث المسيحى ، كما أنها محور عقائد الصابئة ، وهى في الوقت نفسه مرتبطة بالأهرام . انها بالتأكيد شخصية يمكن استثمارها والاستفادة منها وتسويقها ، وبت الأفكار حولها ، وجلب المنافع منها ، وكذلك يفعلون .



لم يرد ذكر للأهرام فى التوراة

ويقول لنا البغدادى ما نصه : « ٠٠ واعلم أن الأهرام لم أجد لها فى التوراة ذكرا ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ٠٠ » ، وقد أردنا التحقق من هذا فراجعنا العهد القديم

كله واستمعنا بقاموس الكتاب المقدس (١) فكشفنا في حرف الهاء (هرم) وفي حرف الألف (أهرام) ، فلم نجد لأى منهما ذكرا ، فكيف إذن بنوه أو شاركوا في بنائه (٢) ؟

أكل لحوم البشر

« يجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »

مرت البشرية في مرحلتها البدائية بأكل لحوم البشر ، بمعنى أن الجماعة البدائية كانت تعكف على جثة المتوفى القريب أو الحبيب أو الغريب ، فتأكله ميتا بعد طبخه أو بدون طبخ ، وفي حالة وقوع الحروب أو المناوشات أكل المنتصرون أعداءهم المهزومين بعد قتلهم أو خنقهم أو شرب دمه . . . وشاع هذا عند حدوث المجاعات أو قلة الطرائد الحيوانية . لكن الانسان بعد أن تدرج في سلم الرقى والحضارة أدرك بشاعة ذلك ، فاليهودية قد وفرت الانسان لأن الله سبحانه - فيما تقول التوراة - خلقه على مثاله ، والمسيحية جعلت للانسان قيمة عالية ، وكان « لابن الانسان » فيها مكانة وأى مكانة . واحترام الاسلام للانسان وتوقيره له ، مسألة معروفة مطروقة - وكانت مصر مسرحا لهذه الأديان جميعا : شهدت دعوة موسى ، وسرفت بوصول المسيح وأمه إليها ، وكان لها في الاسلام دور وأى دور ، كما تدرجت مصر في سلم الحضارة درجات عالية حتى قبل الأديان السماوية ، ومن هنا وما ذكره البغدادي عن نسوع أكل لحوم البشر أثناء المجاعة التي حلت بمصر في القرنين الأخيرين من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للهـ . . . مسألة في حاجة الى تفسير ، كما أنها ذات دلالات على التركيب السكاني في مصر في هذه الفترة .

(١) هيئة تحريره . د . بطرس عبد الملك ، د . جون الكسادير طهسون ، وإبراهيم حار .

(٢) أشار البغدادي لخلو التوراه من ذكر الأهرام في آخر الفصل الخامس ، المقالة الأولى .

لقد قدم لنا البغدادي صورة بشعة عن امرأة تأكل
فخذ زوجها ميتا ، وآخرين يتنازعون وليسدا « لحيها » أى
سمينا ، وعن جماعة يطبخون الأعضاء الآدمية ، ويحدثنا
أن عقاب من كان يفعل ذلك هو الحرق ، وبذلك يصيح الآكل
فيجتمع على جثته المتخوية خلق يأكلونه ، وبذلك يصبح الآكل
ماكولا . الخ . وفى الوقت نفسه ، فإن البغدادي يقدم لنا
إشارات تعيننا على فهم ذلك ، فهو يذكر أن امرأة « تجسرية »
فعلت ذلك ، وقبائل التجريين أو التجريانيين Tigre
هى قبائل سوداء من أطراف الحبشة . ولم يرقم البغدادي
بدور الأنثروبولوجي فيعين لنا أعراق من فعلوا ذلك ، ولو أنه
فعل لأراحنا وفسر لنا كثيرا مما غيض علينا .

وفى سياق آخر يحدثنا عن امرأة من « الأجنلا » ذات
مال ويسار كان زوجها غائبا فى الخدمة ، وينضح من الانسجم
« أجنلا » أيضا أن المرأة ذات المسؤول تعود بها إلى شرق
أفريقيا أو وسطها ، ولا يبعد أن تكون من قبائل الجلا
، وذكر البغدادي أن زوجها كان غائبا فى
الخدمة تعنى أنه كان من حرس الحاود مثلا أو من العاملين
فى الخدمات المساعدة للخدمة . الخ .

وإذا علمنا أن هذه الجماعة المصنوعة بالأوبوسة رغم
فناعتها (لدرجة أنها تركت قري كاملة خالية من أى بشر)
لم تكن هى الأولى من نوعها فى التاريخ الإسلامى على الأقل
كما أسرنا فى موضع آخر من هذه الدراسة ، لاتضح لنا أن
مصر كانت فى وضع يسمح لها باستقبال هجرات من الجنوب ،
سواء على شكل نسيل ارادى سلمى أو على شكل استتلاب
رقيق . وقد أحضر هؤلاء معهم تراث الثقافة البدائية بما فى
ذلك أكل لحوم البشر ، لكن هذا على أية حال سرعان ما تلاشى
بفعل التأثيرات الحضارية والدينية المصرية العريقة ، ومع
هذا فقد ظل هذا مخزونا فى اللغة والتعبيرات ، فالحديث عن
إلاد « نمم » ظل يتردد فترة طويلة على لسان الأهوا
والجندات ، والتعبيرات من نساء سوداوات لهن ذبول ظل
يتكرر فى بعض البيئات ، وبعض الأخوة فى السودان فى بعض
البيئات إذا أثرت سخطه ، هددك بأن يأكلك « هاكلك والله ،

هاكلك » ولا شك أن أحد المسؤولين الكبار سمع من جدته أو أمه - وكانت من وسط أفريقيا - أنه إن ارتكب خطأ فإنها « ستفرمه » وتجهله « كفتنة » ، ومن هنا فقد استخدم هذا المسؤول التعبير نفسه في إحدى المناسبات ، وهو تعبير مخزن يعود إلى قبائل وسط أفريقيا •

وقد ظل انكار وجود ظاهرة « اكل لحوم البشر » بين القبايل الأفريقية مسألة بدت ضرورية خاصة في مرحلة التحرر الأفريقي ، لكن الحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قائمة لتشير إلى مرحلة مرت بها البشرية ، وأنها - أي هذه الظاهرة - بدأت تتلاشى رويدا رويدا ، إلى أن انتهت • وقد حدثنا الرحالة فارتيما (الحاج يونس) عن هذه الظاهرة نفسها في بعض مناطق جنوب شرق آسيا ، وقد تمت الرحلة في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر للميلاد •

ويحدثنا البغدادي عن ظاهرة بشعة أخرى شاعت أثناء هذه الشدة أو المجاعة الكبرى ، وهي بيع الأحرار ، ويذكر أن سفن الأجانب كانت تقترب من السواحل المصرية لتشتري « الأحرار » بالنسيء القليل ، وعرضت امرأة بائسة ابنتها الجميلة على البغدادي ليشتريها فافتأها بأن ذلك « حرام » ، فقالت له اذن خذها « هدية » • ويبدو أن الرجل قد قبل « الهدية » ولم يدفع شيئا ، لأنه لو دفع لكان ذلك « حراما » وأما يذكر لنا البغدادي أنه رفض الهدية •

وفي هذه الظروف كثر القوادون ، وحقق كثيرون ثراء لا يدرى أحد مصدره •



ولم يكن غريبا أن الفصل الخاص بالنبات وهو الفصل الثاني من المقالة الأولى ، من أكثر فصول الكتاب تفصيلا وتحليلا ، فعبد اللطيف البغدادي طبيب في المقام الأول ، وكانت معرفة الطب حتى عصر البغدادي (القرنين : ٦ و ٧ هـ ، ١٢ و ١٣ م) مرتبطة بعلم الأقرباذين أو علم الصيدلة ، وهذا العلم مرتبط بدوره بالنبات الذي منه معظم الدواء • وقد وصف البغدادي معظم ما رآه من نبات وصفا مباشرا فحدثنا

عن البذور واليجذور والسوق والأوراق ، وما إذا كان نباتاً يؤكل أم أنه للتداوى أم أنه للأكل والتداوى معا ، وحددنا عما يستخدم منه للزينة •

لكن البغدادى قدم لنا أيضا معلومات عن النبات ، نقلها من المصادر العربية أو اليونانية أو اليهودية فقد نقل عن كتاب (المستغنى) وهو كتاب فى الأدوية المفردة مؤلف عرف بالاسرائيلي ، وهو مؤلف يهودى اهتم بالطب والصيدلة والنبات ، وقد اعتمد عليه محمد بن محمد الأندلسي الشهير بالادريسي (١) بالإضافة الى مصادر أخرى فى كتابه : (الجامع لصفات اشجار النبات) ، فقد أشار الادريسي لهذه النباتات الآننى ذكرهم ، وكلهم حقق شهرة فى هذا المجال ، وأشار الى بعضهم عبد اللطيف البغدادى فى أكثر من موضع :

- كتاب ستيفن فى المفردات (مفردات النبات) •
- كتاب جالينوس فى المفردات •
- كتاب الأدوية المفردة لحنين بن اسحق •
- الفائدة لابن سيرامون •
- النبات لابن جليل •
- كتاب الأدوية المفردة لخلف بن عباس الزهراوى •
- كتاب المستغنى للاسرائيلي •

وليس أدل على أهمية اشارات البغدادى للنباتات المختلفة من أن ابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ قد اعتمد عليه بالإضافة لاعتماده على المصادر اليونانية ، وكتاب ابن البيطار مشهور معروف يعد علامة بارزة فى تاريخ علم النبات وعلم الصيدلة وعلم الأعذية على سواء • وقد اعتمد

(١) ولد بسبته ٤٩٣هـ/١٠٩٩م • تلقى العلم فى قرطبة واستقر زمانا فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى فى بالرمو بصقلية ، ولذلك سمي بالصقل • من كتبه أيضا : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وكتاب « المسالك والممالك » •

ابن البيطار (١) - كما اعتمد البغدادي من قبله - على المشاهدة والملاحظة والتجربة بالإضافة للنقل والسماع *

وقد سمع عبد اللطيف البغدادي من بعض أهل البلاد أحاديث عن النباتات لم يعد هناك شك في خطئها ومع ذلك ، فقد خضعت مثل هذه المعلومات الخاطئة لتحليلات عميقة ، فبعد أن شرح البغدادي لنا شيئا كثيرا عن نبات القلقاس ، وعن النخيل ذكر لنا أن شجرة الموز هي عوان بين القلقاس والنخيل ، وأن بعض الناس أخبروه أنه إذا وضع نواة البلح في قلب قلفاسه وزرعها أثبتت موزا ، وهذا بالتأكيد خطأ لا جدال فيه ، وكان ينبغي أن يتوثق منه البغدادي ، وقد استبعد الرجل ذلك بالفعل ، لكنه راح يقدم مقارنة بين شجرة الموز وبين النخلة وشجرة القلقاس معا ، فخلص إلى أن شجرة الموز بالفعل عوان بين الشجرتين ، وكان تحليله ممتعا *

ومن استنتاجاته الخاطئة أيضا أن الزنجبيل هو القلقاس ، لكنه في اليمن يكون زنجبيلاً خراة الجو ، وفي مصر فلفاس لطوبة الجو ، وذكر أن القلقاس إذا لم يطبخ كان فيه حرارة كحرارة الزنجبيل يحس المرء لسعها في الحلق * وقد اعتمدنا في تحقيق أسماء النباتات الواردة في هذا الفصل على جملة مراجع منها :

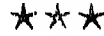
- معجم المصطلحات العلمية والفنية (مدخله باللغة العربية) الذي أعده يوسف خياط وأحدثه بطبعته المعدلة للسان العرب لابن منظور (أعاد ترتيبه وفقا لأوائل الكلمات) *

- معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية *

- راجعنا في بعض المواد مثل (قرظ) و (عفص) تذكرة داود الأنطاكي (مرتب هجائيا) ، وهو « تذكرة أولى

(١) عبد الله بن أحمد بن البيطار صاحب كتاب (الجامع لفردات الأدوية والاعذية) عشاب معروف ، أندلسي مالمى ، توفي سنة ٦٤٦ هـ وقد ألف كتابه هذا ، كما ألف من الملك صالح نجم الدين أيوب ، مرتبا حسب حروف المعجم *

الألباب الجامع للعجب العجيب « طبعة الشهيرة - مكتبة
التنقيح الأدينييه • جزءان في مجلد واحد وبآخره ذيل التذكرة
لأحد تلاميذ المؤلف • لكننا لم ننقل في تعليقاتنا كل ما ورد
في هذه التذكرة واكتفينا بما هو متفق مع معجمي الشهابي
وخياط ، ومن أراد مزيدا من التفاصيل فعليه مراجعته •



عن عالم الحيوان في مصر

ويتعرض البغدادي في الفصل الثالث من المقالة
الأولى لحيوانات مصر ، وهو لا يقدم في هذا الفصل عرضا
مفصلا (الى حد ما) كما فعل في فصله المتعلق بالنبات ،
وانما هو يورد قليلا من الامثلة ، على انه افاض في الحديث
عن الترفيد - أي عملية تفقيس الكتاكيت في المراقد بطرائق
صناعية مختلفة - عن ترك البيض تحت الدجاج حتى يفقس •
وهي عملية - فيما يبدو - اقتص بها المصريون ، وظلت تثير
عجب الرحالة حتى القرن السابع عشر للميلاد : فنحن نجد
الرحالة الأبريطاني جوزيف بيتس الذي تسمى باسم الحاج
يوسف يذكر لنا :

« • • وللمصريين طريقة طريفة في تفقيس الكتاكيت ،
وقد يظن بعض من يقرأ كلامي أنني أروى خرافة ، ولكنني أؤكد
أنني رأيت ذلك بنعسي وأن ما أرويه حقيقي • فلدى المصري
مكان محفور تحت الأرض لا يبعد في شكله عن القرن وقد
فرس قاعه بالقش ، يضع فيه بضعة آلاف من البيض متراكمة
بعضها الى جوار بعضها الآخر وفوق بعضها ، ويتركها
لتنفس بفعل حرارة الشمس دون الاستعانة بدفء دجاجات ،
أو دفء أي كائن منتج آخر ، فاذا ما فقس البيض وظهرت
الكتاكيت يبيعونها للفقراء بالكيل • • » (١) • لكن البغدادي

(١) بيتس : جوزيف ، رحله الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الالف كتاب الثاني -
١٨٩٥ ، ١٩٩٥ ص ٣٦ •

كان أكثر دقة من بيتس في وصف هذه المراكب ، فراح يصفها بالتفصيل مؤكدا أن تصميمها من الداخل يحاكي شكل الدجاجة .

الحمار المصري الأصيل

ويتعرض البغدادي في عجلة وفي جمل قصار لخيول مصر . ويستوقفنا ما أورده عن الحمار فهو يقول ، ان حمير مصر فارهة جدا وتركب بالسروج وقد تسبق في جريها الخيول والبغال النفيسة .

ولعل لذلك سياقاً تاريخياً قد يكون من المفيد ذكره ، ذلك أنه في بعض مراحل التاريخ جرى تحريم ركوب الخيل على غير المسلمين ، كما جرى تحريم البسة معينة ، ولم يكن ذلك في الواقع إلا لأسباب متعلقة بالأمن الداخلي في فترة كان من الضروري التمييز فيها بين العناصر العسكرية والعناصر المدنية . وبصرف النظر عن تفسير ذلك ، فالمهم هنا أن نذكر أن هذا الخطر دفع اليهود والنصارى إلى الاهتمام اهتماماً شديداً بالحمير ، فاصبح الحمار الذي يركبه اليهودي ذو الحيثية أو النصراني ذو الحيثية ، قوياً متيناً معتمداً به ربما فاق البغل أو بعضاً من الخيل . وفي ظل هذه الظروف ارتفع ثمن بعض الحمير ليصل الواحد منها إلى أربعين ديناراً . وهكذا لم يستفد من هذه التفرقة إلا الحمار . ولعل هذه الظروف التاريخية تفسر لنا انتشار هذا الصنف من الحيوان في مصر وكثرة توالده . هذا بطبيعة الحال بالإضافة لأسباب أخرى ربما تكون أهم ، وهو الحاجة الشديدة إليه في العمل الزراعي .

قاعد ينش !!

وتفسر لنا هذه الرحلة وغيرها من الرحلات ، كثيراً من العبارات التي لازالت شائعة رغم أننا لم نعلم ظروفها التاريخية التي نشأت بها . فمن التعبيرات الشائعة بين

المصريين في وصف الشخص الذي لا عمل له (أنه قاعد ينش) وربط العلامة بين هذا التعبير « ينش » الذباب أى إبعاده ، بينما لا علاقة فى الواقع بين النش والذباب فالتعبير المناسب لإبعاد الذباب هو (دب الذباب) ، بل لقد قيل أن الذباب ما سمي ذبابا إلا لأنه كلما دب أب ، أى كلما دب أى أبعد ، أب أى رجع (دب - يضمم الذال وتشديد الياء وفتحها) • نعود الى الأصل التاريخي الذي يوضحه لنا البغدادى لتعبير (قاعد ينش) • نرى نسمان العرب لابن منظور نسمين المياه جفافها • نرى النصارى أو القنوص أو النهر ينش نشا ونسمينها أى يمس ماءه ونضرب ، وفيل نسم الماء على وجه الأرض أى نشف وجف ، وقد استخدم البغدادى تعبير نسم النيل أى جف وذلت فى سنوات القحط والسمنة ، ولا شك أنه استخدم هنا التعبير الشائع على ألسن المصريين الذين حدثوه عن أن النيل قد نسم ، وسأجد هو بنفسه نسمين النيل • وإذا نش النيل نسم المصريون ، فالمصريون فلاحون زراع ، وماذا يفعل الفلاح إذا لم يجد ماء أو إذا نش الماء ؟ انه هو أيضا يجف أى ينش أى يصبح غير قادر على العمل • • وانتهت ظروف جفاف النيل وعموم المجاعات لا أعادها الله بعد خزن المياه عن طريق السدود والفتاخر والسد العالي ، ومع هذا بقى التعبير كامنا فى ضمير الشعب يتم استخدامه دون معرفة ظروفه التاريخية ، ومن ذلك أيضا تعبير (قاعد يقشر بصل) أو فلان (يقشر البصل) للدلالة أيضا على البطالة وقلة العمل والضيق ، وهذا التعبير أيضا مرتبط بأيام جفاف النيل ، أو نسمين النيل ، ذلك أن المصريين الذين أصابهم الضر وعموا المياه والطعام كانوا يهرولون الى قاع النيل الجاف حيث بقايا المياه ، وحيث نبتت الحشائش والابصال على بقايا مياه القاع ، فيعهده المصري الى بعض هذه الابصال (النباتات البصلية أى ذات الجذور القابلة لأن تؤكل) فيقشرها ويأكلها ، فإذا افتقد واحد من المصريين صديقه أو قريبه وسأل عنه قيل له : « قاعد - فى قاع النهر - يقشر بصل » ، ولم يعد المصريون يقشرون بصلا فإياهم غدت طيبة - أدام الله طيبها - ومع هذا ظل التعبير مخزونا فى اللغة الشعبية ، لتذكرنا بأيام جفاف النيل •

لماذا اختفى التمساح المصري؟

ويحدثنا البغدادي (القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) عن كثرة التماسيح في النيل خاصة في المجرى الرئيسي في الصعيد ، ويذكر أن نسلها « كالود كثرة » وانها تكون « صغارا وكبارا » ، وأن أكبر منها « ينيف على عشرين ذراع طولاً » . وينقل البغدادي عن أرسطو قوله أن كبد التمساح « تهيج المجتمع » أي تزيد من الطائفة الجنسية للرجال ، وأضاف البغدادي ناسبا لأرسطو قوله أن « كليتي التمساح ودهنه » يبلغ في تحقيق هذا الغرض . ويبدو أن نسبتنا من هذه الفكرة لا زال قائما إلى الآن ، ذلك أن واحدا من عمال حديقة الحيوان تفرس في وجهي المتغضن وحيثي - بينما كنت أتنازه مع أولادي في الحديقة ، وعرض علي هامسا أن يبيعني شيئا قدمه لي على أنه دهن تمساح . فلما سألتته عن فائدته ، نظرت إلى بعوض ، فلما لم أفهم أغمض عيني وفتحت أخرى ، وتركني ورحل . أين ذهبت كل هذه التماسيح الكثير توالدها . لاشك أن المصريين أسرفوا في أكلها ، خاصة ونحن نقرأ في تذكرة داود الانطاكي (١١ هـ / ١٧ م) ما يؤكد هذه الفكرة ويقول الانطاكي أن أكله يحرك الباء - المعنى مفهوم . وفيما يلي نص ما قاله :

« * * [تمساح] حيوان مائي في الأصل لكنه يعيش في البر وهو من ذوات الأربع يقال إنه أغلظ الحيوانات البحرية جلداً ويبيض في البر فيكون منه السقنقور (١) ، وصغاره تعرف بالورل قيل أنه من خواص نيل مصر وأنه يحرك فكه الأعلى دون سائر الحيوانات وأنه لا يروث وإنما يدخل في جوفه طائر فيأكل ما فيه ويخرج فإن وجد فمه مطبوعاً نثره بعظمة في رأسه حتى يفتح فاه وهو مفترس جبان قليل الجري إلا إذا كسر ولا يأخذ في عمق الماء ويحب الغيلة وهو حار في آخر الثانية يابس في أول الثالثة أكله يحرك الباء (٢) ويخصب البدن ويقطع القولنج وسحتمه يحلل الأوجاع الباردة من المفاصل والظهر شرباً وطلاء

(١) هذا خطأ لا شك فيه فالسقنقور غير التمساح .

(٢) أي الطاقة الجنسية .

ويفتح الصمم وأن فدم والصداع واشقيقة ولو سعوها وزبله
يجلو البياض مجرب والكلف والبهق وكذا دمه مع الامليج *
ومن خواص شحمه اذهاب الربيع طلاء وكبدته اذهاب البهون
بخورا وعينه ايقاف البندام تعليقا اذا فلتعت وهو حتى قيل
ووجع العينين * ومن خواص معشومضه أن يتبعه الكمل حيث
كان حتى يدخل في الجرح فيقتل ويخلص من ذلك البخور حوله
بأنكهون والنظران والتمساح عسر الهضم ردىء الغذاء ويصلحه
الدارصيني ومعجون الكمون * (١) *

وقد أشار القاضي التيفاشي الذي عمل فاضسيا في ظل
الدولة الحفصية - كثيرا الى لحم التمساح وما يسببه من
قوة وفحولة لمعاطيه ، ولعل هذا هو السبب في رحيل هذا
القاضي الى مصر التي ألف فيها كتابه المشهور (رجوع الشيخ
الى صباه في القوة على الباء) (٢) *

البغدادى والوصف الجغرافى وتحديد المواقع الملكية

ربما يجد القارئ غير المتخصص عجباً في أن البغدادى
ابن القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد ، يتحدثنا عن
الموقع الملكى لمصر فيذكر أن حدها الجنوبى هو ٢٢° درجة ،
وأن منابع النيل نفع الى جنوب خط الاستواء ، والواقع أن
الباحث الشهير كرانسوفسكى فى كتابه (تاريخ الأدب

(١) تذكرة داود الاطائى - حرف الباء - مادة تمساح *

(٢) التيفاشي الموفى ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م هو أحمد بن يوسف التيفاشي
الذى ولد فى تيفاش من قرى نفصة المدينة التونسية المسهورة فى الجنوب
العربى ، سافر الى القاهرة ومما الى دمشق لكنه عاد الى القاهرة - ربما
حباً فى لحم التمساح - مات بمصر ودفن بمقبرة باب النصر ، ومن كتبه
أيضا : أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار (حقيقه ونشره د. محمد يوسف
حسن ومحمود خفاجى) *

الجغرافي العربي (١) ، يقطع لنا بأن العرب أضسافوا لعلم
الجغرافيا منذ أقدم العصور والارض • حاليه • إن الجغرافيين
العرب اعتمدوا في البدايه على كتاب الجغرافيا لبطلهموس
الاسكندري ثم - بشكل أقل - على كتاب ماريثوس الصوري ،
لكن منذ عهد المأمون حلت الجغرافيا العربية الخالصه محل
الجغرافيا اليونانيه •

مكانة البغدادي بين الرحالة العرب

يستحق عبد اللطيف البغدادي أن يفسرد له الباحثون
قصداً مستقلاً في بحوثهم عن أدب الرحلة عند العرب
أو بحوثهم عن العرب والجغرافيا ، كما أن دراسة مفصلة عن
العلوم عند العرب تفتلو من ذكر عبد اللطيف البغدادي هي -
يقينا - دراسة غير مكتملة •

إن معظم الرحالة المسلمين أتوا من أطراف العالم
العربي ، سواء الأطراف الشرقية أم الغربية ، فمن الأطراف
الشرقية نسمع عن ناصري خسرو الفارسي (توفي ٥٤٢ هـ /
١٠٦٠) الذي سجل رحلته في كتابه (سفرنامه) (٢) ،
ونسمع أيضا بالرحالة الهروي المولود في هراة ، الذي أقام
بالاسكندريه سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م •

وقد ركز في رحلته على مواضع الزيارة الدينية ،
ويقصد بها قبور الاولياء والصالحين (٣) •

أما الرحالة المنطلقون من الطرف الغربي للعالم الاسلامي ،
فمنهم ابن جبير الذي انطلق من غرناطة ٥٨٧ هـ / ١١٨٣ م
ووصل الاسكندرية ومنها الى قوص وعيذاب فجده ، وبعد
اداء الحج اتجه الى العراق ثم تركه للشام واتجه الى صقلية
وعاد الى غرناطة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، لكنه ارتحل بعد ذلك
للمشرق مرتين ومات بالاسكندرية ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م •

(١) ترجمة رامي المرحم السرداني ، سلاح الدين عثمان هاشم •
(٢) ترجمه يحيى النشاب ونشرته مطبعة لجنة التاليف والترجمة
والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ •
(٣) الهروي ، أبو الحسن على : الاشارات الى معرفة الزيارات •
دمشق ، المعجم الفرنسي ، ١٩٥٣ •

ونسلمه أيضا عن ابن سميكة الأندلسي الذي وصل
الاسكندرية سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وتنقل بين مدن الشام
والعراق *

وهناك الرحالة العربي المنسوب إلى عبد الدار وانطلق
صوب المشرق من السوس الأقصى حيث استقرت أسرته
يومئذ ، وبدا رحلته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م فزار الشمال
الأفريقي كله ووصل إلى الاسكندرية ثم أدى فريضة الحج ،
وعاد إلى بلاده *

وهناك شيخ الرحالة ابن بطوطة ، الذي قضى
ثمانين وعشرين سنة من حياته يتنقل بين أجزاء العالم ، لقد
انطلق من طنجة وبعد أن أدى فريضة الحج أتبعه إلى فارس
وشرق أفريقيا ، وزار النهر وحوض الفولجا والقسطنطينية ،
وزار في رحلة أخرى خوارزم وبخارى وكردستان وبلاد الأفغان
والهند والصين ، * * وسجل ابن بطوطة مشاهداته في
« تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » *

ومن هذا العرض نلاحظ أن معظم الرحالة المسلمين
قدموا من جناح العالم الإسلامي الشرقي أو جناحه الغربي ،
وكان هدفهم الأول ودافعهم الأساسي هو أداء فريضة الحج ،
ونظرا لبعدهم بلادهم فقد مروا بمناطق كثيرة وشعوب كثيرة ،
وهم في طريقهم للديار المصرية ، فزادهم هذا شغفا بالرحلة
حتى أن معظمهم بعد أن أدى فريضة الحج ، شغف بالترحال ،
فقام برحلة أو أكثر من رحلة بقصد الرحلة نفسها أو شغفا
بالترحال ذاته هذه المرة ، وهذا أوضح ما يكون عند ابن بطوطة
فإن كانت رحلته الأولى قد قصصها بها أداء فريضة الحج ،
فلأنك أن رحلته الأخرى لم يكن يقصد بها إلا تحصيل فوائد
السفر من علم ومعاينة وتعرف * * الخ *

أما الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الإسلامي ذاته
فهم أقل عددا ، وربما أقل شهرة ومن هؤلاء ابن فضلان
الذي انطلق من بغداد في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله
(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) واتجه إلى بلاد الصقالبة بأمر الخليفة
ليكون رئيسا للوفد المرسل لملك هذه البلاد ، ليعلم شيعته

— بناء على طلبه — حقائق الاسلام • كان ابن فضلان اذن في مهمة رسمية ، لكن قلبه اليقظ وعقله الواعي جعله يتأمل ويفقه ما يشاهد ، فكانت رحلته المدروفة باسم (رسالة ابن فضلان) (١) •

ورحالتنا عبد اللطيف البغدادي هو ايضا من الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الاسلامي لا من اطرافه ، فقد ولد في بغداد . وعمل في خدمة صلاح الدين الايوبي في الشام وخدمة اولاده في مصر ، وقد رتبوا له مائة دينار في الشهر ليشفرح للعلم •

ونحن نلاحظ أن الرحالة الذين انطلقوا من وسط العالم الاسلامي لم يقوموا برحلات طويلة ، وانما كانوا يزورون بلادا معينة يتوجهون اليها ، فلم يتعد ابن فضلان بلاد الصقالبة ، ولم يتعد البغدادي مصر والشام والحجاز •

واذا رحلنا نبحث عن مكان البغدادي بين الرحالة المسلمين من ناحية أسلوب المعالجة ومجال الاهتمام ، وجدنا أن البغدادي حري به أن نطلق عليه « الرحالة » العالم ، وهو بالفعل ما أطلقه عليه بعض الباحثين (٢) ونحن لانعدم ما يؤكد ذلك في كثير مما أورده في رحلته هذه التي بين أيدينا ، فقد انتهز فرصة كثرة الجشت التي ملأت النيل والطرق والخلاء في أثناء الشمسدة أو المجاعة التي آلت بمصر ، وراح يدرس النظام البشرية عظمة عظيمة ويقارن تركيب الجسم البشري بما ورد في كتب الأطباء اليونان والعرب ، ليخلص بنتائج مؤداها أن بعض هؤلاء الأطباء قد أخطأوا ، فالمعينة والمشاهدة ودراسة الواقع أقوى من كل نقولات ، مهما كان مصدر هذه النقولات • وعندما يدرس البغدادي مياه النيل ويسمونه ما فيه من عفون بسبب عدم جريان الماء لانخفاض مياه النيل — يقرر

(١) نشرها المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٩ بعنوان (رسالة

ابن فضلان) •

(٢) منهم نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ،

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٢ •

أن تسخين هذا الماء أو غليه لا يخلصه مما فيه من ضرر لغلبة العفن على الماء * وهو في هذه الحالة يفضل مياه الآبار *

ومن أقوى الفصول العلمية في نسابه هذا ما يتعلق بنباتات مصر ، فغلبه تفاصيل طبية ، كما يبين قدرة كبيرة على التأمل * كما كتب فصلاً طيباً عن الحياة الحيوانية في مصر ، ومن المهم أن نذكر أن معلومات البغدادى عن الحيوان والنبات والتشريح والغذاء ليست معلومات عرضية يتصيدا القارئ من بين فيض من الكمالات في مجالات أخرى ، أو ينصدها من بين استطرادات لا حصر لها ، وإنما نجد البغدادى قد رتبها وحملها على قدرها ، مما يؤكد منهجه العلمي المؤكد ، ولا غرو فهو طبيب مشهور أسير له بالبنان في الشام ومصر على سواء * والطبيب في هذا العصر كان بالضرورة عالماً بالأدوية ، أو أنه على نحو أو آخر كان عشاباً أو ملماً بالأعشاب المفيدة كالعلاج *

وقد اختلف مؤرخو العلوم منذ العرب بالمنهج العلمى لعدد من العلماء ، من بينهم عبد اللطيف البغدادى ، فيحدثنا جلال مظهر (١) عن ذلك :

« * * ويقدم لنا عبد اللطيف البغدادى فكرة جسيمة واضحة عن الأسلوب العلمى الذى اتبعه العرب لاجتداد أدلة يؤيدون بها ما يقرأونه في الكتب * وهذه الطريقة تبين الى مدى كبير استقلالهم في الرأى ووسائلهم العلمية الصحيحة وعدم خضوعهم اجتهاداً لحيجيسة جالينوس أو غيره * وكان عبد اللطيف البغدادى أول من افصح بجلاء عن أهمية المشاهدة ودقة التحرى أولاً ، حتى فيما قال جالينوس *

وفى اقوال عبد اللطيف البغدادى عن التشريح ما يغنى عن هذا وما يشهد لنا بكل جلاء أنه كان أول من اتقن جالينوس نقداً صريحاً ، وأظهر خطاه في التشريح معتدداً على المشاهدة

.....

(١) حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمى ، صص ٣٤٥-٣٤٦ *

واللهي . قال : « ومن عجب ما شاهدناه ان جماعة من
يتعاطون الطب وصلوا الى كتاب في التشريح فكان يمس
اذنهم وفتحتهم فصور القول عن العيون ، فاخبرنا ان في
المقاس نلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فراينا تلا من رمم له
مسافة طويلة يكاد يكون ترابه اقل من الموتى به ، تحدث
ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات
في قرب العهد وبعده . فشهدنا من شكل العظام ومفاصلها
وكيفية اتصالاتها وتناسبها واوضاعها ما افادنا علما لا نستفيد
من الكتب ، اما انها سكنت عنها ، او لا يفى لفظها بالدلالة
عليه ، او يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، واخص اقوى
في الدلالة من السمع ، فان جالينوس وان كان في الدرجة
العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكى ، فان احس
اصدق منه . »

فمن ذلك عظم الفك الاسفل ، فان الكل قد اجمعوا على
انه عظمان مفصل رقيق عند الحنك . وقولنا الكل انما
نعنى به هاهنا جالينوس وحده ، فانه الذي باشر التشريح
بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها
موجود لدينا والباقي لم يخرج الى لسان العرب .

والذي شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد
ليس فيه مفصل ولا درز أصلا ، واعتبرنا ما شاء الله من
المرات في اشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة باصناف من
الاعتبارات فلم نجد الا عظمها واحدا من كل ما شاهدناه منه
وحكياته . وكذلك في أشياء أخرى غير هذه . ولئن مكنتنا
المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ما شاهدناه
وما علمناه ، ثم اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير
القديم المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل
ولا درز ، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم
عليها الزمان أن تظهر وتتفرق ، وهذا الفك الاسفل لا يوجد
في جميع احواله الا قطعة واحدة . »

ليس هذا هو الاسلوب العلمى الصحيح ؟

مؤلفات البغدادي الأخرى والمراجع التي تناولته

وصفه الدين ترجموا له بأنه من فلاسفة الاسلام ومن
المكثرين في التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب
والتاريخ والبلدان والأدب ، ومن كتبه :

- قوانين البلاغة *
- الانصاف بين ابن برى وابن الخشاب في كلامهما عن
المقامات *
- الجامع الكبير في المنطق الطبيعي والالهي *
- الكلمة في الربوبية *
- الحكمة الكلامية *
- تهذيب كلام أفلاطون *
- القياس
- السماع الطبيعي *
- غريب الحديث *
- المنحني الجلي في الحساب *
- التجريد في اللغة *
- شرح أحاديث ابن ماجه المتعلقة بالطب *
- مختصر الحيوان للمجاحظ *
- كتاب في النبات *
- رسالة في النفس *

- رسالة في العلم الالهي *
- رسالة في الماء *
- حقيقة الدواء والغذاء *
- رسالة في الحواس *
- رسالة في النفس والصوت والكلام *
- المدينة الفاضلة *
- اللغات وكيفية تولدها *
- القدر *
- وغيرها *

وترجمت له كل كتب التراجم التي تغطي فترة وفاته
 كابن شاكر الكتبي في كتاب (قواف الوفيات) والسبكي في
 (بغية الوعاة) ، وابن أبي أصيبعة في (طبقات الأطباء) . الخ
 ومن المراجع الحديثة التي كتبها أطباء كتاب (لمحات من التراث
 الطبى العربى) (١) * وقد آثرنا أن نورد في هذا الكتاب
 ترجمة كاملة للبغدادي من كتاب ابن أبي أصيبعة يجدها
 القارئ بعد هذه الدراسة مباشرة *

(١) تأليف د. مرسى محمد عرب (استاذ الامراض الباطنية بدات
 الاسكندرية) الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٥ * وقد خصص الفصل
 الخامس لاضافات العرب لفروع الطب المختلفة *

[من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة]

هو الشيخ الامام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ويعرف بابن اللباد موصلى الأصل بغدادى المولد * كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف وكان متميزا فى النحو واللغة العربية عارفا بعلم الكلام والطب * وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها ، وكان يتردد اليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه * وكان والده قد شغله بسماع الحديث فى صباه من جماعة ، منهم ابن الفتح محمد بن عبد الباقي المعروف بابن البطي وأبو زرعة طاهر بن محمد المقدسى وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل وغيرهم * وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشغولا بعلم الحديث بارعا فى علوم القرآن والقراءات مجيدا فى المذهب والخلاف والأصولين وكان متطرفا من العلوم العقلية * وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين فقيها مجيدا وكان الشيخ موفق الدين عبد الله كثير الاشتغال لا يخلو وقتا من أوقاته من النظر فى الكتب والتصنيف والكتابة * والذى وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا ، بحيث انه كتب من مصنفاته نسخا متعددة ، وكذلك أيضا

كتب كتباً كثيرة من تصانيف القدماء وكان صديقاً لجدي وبينهما صحبة أكيدة بالديار المصرية لما كانا بها * وكان أبى وعمى يشتغلان عليه بعلم الأدب واشتغل عليه عمى أيضاً بكتب أرسطوطاليس * وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها والفهم لمعانيها وأتى الى دمشق من الديار المصرية وأقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمه ورأيت أنه لما كان مقيماً بدمشق فى آخر مرة أتى إليها وهو شيخ نحيف الجسم ربيع القامة حسن الكلام جيد العبارة وكانت مسطرته أبلغ من لفظه وكان رحمه الله ربما تجاوز فى الكلام لكثرة ما يرى فى نفسه ، وكان يستنقص الفضلاء الذين فى زمانه وكثيراً من المتقدمين ، وكان وقوعه كثيراً جداً فى علماء العجم ومصنفاتهم ، وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه *

(ونقلت) من خطه فى سيرته التى ألفها ما هذا مثاله قال : انى ولدت بدار لجدي فى درب الفالودج فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة وتربيت فى حجر الشيخ أبى النجيب لا أعرف اللعب واللغو وأكثر زمانى مصروف فى سماع الحديث ، وأخذت لى اجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر * وقال لى والدى يوماً قد أسمعتك جميع عوالى بغداد وألحقتك فى الرواية بالشيوخ اللسان * وكنت فى أثناء ذلك أتعلم الخط وأحفظ القرآن والفصيح والمقامات وديوان المتنبى ونحو ذلك ومختصراً فى الفقه ومختصراً فى النحو فلما ترعرعت حملنى والدى الى كمال الدين عبد الرحمن الأنبارى ، وكان يومئذ شيخ بغداد وله بوالدى صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية (١) فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذر كلاماً كثيراً متتابعاً لم أفهم منه شيئاً ؛ لكن التلاميذ حوله

(١) المقصود المدرسة النظامية *

يعجبون منه ، تم قال : أنا أجفو عن تعليم الصبيان احمله الى تلميذى الوجيه الواسطى يقرأ عليه فاذا توسطت حاله قرأ على * وكان الوجيه عند بعض أولاد رئيس الرؤساء وكان رجلا أعمى من أهل الثروة والمروعة فأخذنى بكلتا يديه ، وجعل يعلمنى من أول النهار الى آخره بوجوه كثيرة من التلطف فكنت أحضر حلقته بمسجد الظفرية ويجعل جميع الشروح لى ويخاطبنى بها وفى آخر الأمر أقرأ درسى ويخصنى بشرحه ، ثم يخرج من المسجد فيذاكرنى فى الطريق * فاذا بلغنا منزله أخرج الكتب التى يشتغل بها مع نفسه فاحفظه واحفظ معه ، ثم يذهب الى الشيخ كمال الدين فيقرأ درسه ويشرح له وأنا أسمع * وتخرجت الى أن صرت أسبقه فى الحفظ والفهم وأصرف أكثر الليل فى الحفظ والتكرار واقمنا على ذلك برهة كلما جاد حفظى وكثر وجاد وفهمى وقوى استنار ذهنى احتد واستقام * وانا لازم الشيخ وشيخ الشيخ وأول ما ابتدأت حفظت اللمع فى ثمانية أشهر أسمع كل يوم شرح أكثرها مما يقرؤه غيرى ، وأنقلب الى بيتى فأطالع شرح الثمانين وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان وكل ما آجد من شروحها وأشرحها لتلاميذ يختصون بى الى أن صرت أتكلم على كل باب كراريس ولا ينفد ما عندى * ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظا متقنا، أما النصف الأول ففى شهور وأما تقويم اللسان ففى أربعة عشر يوما لأنه كان أربعة عشر كراسا * ثم حفظت مشكل القرآن له وغريب القرآن له وكل ذلك فى مدة يسيرة ثم انتقلت الى الايضاح لابى على الفارسى فحفظته فى شهور كثيرة ولازمت مطالعة شروحه وتتبعته التتبع التام حتى تبهرت فيه وجمعت ما قال الشراح * وأما التكملة فحفظتها فى أيام يسيرة كل يوم كراسا وطالعت الكتب المبسولة المختصرات وواظبت على المقتضب

للمبرد وكتاب ابن درستويه ، وفي أثناء ذلك لا أغفل سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضالان بدار الذهب وهي مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب * قال : وللشيخ كمال الدين مائة تصنيف وثلاثون تصنيفا أكثرها في النحو وبعضها في الفقه والأصول وفي التصوف والزهد وأتيت على أكثر تصانيفه سماعا وقراءة وحفظا، وشرع في تصنيفين كبيرين أحدهما في اللغة والآخر في الفقه ولم يتفق له اتماهما ، وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه وأكبت على المقتضب فأتقنته * وبعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرح السيرافي ثم قرأت على ابن عبيدة الكرخي كتب كثيرة ، منها كتاب الأصول لابن السراج والنسخة في وقف ابن الخشاب برباط المأمونية ، وقرأت عليه الفرائض والفروض للخطيب التبريزي وهو من خواص تلاميذ ابن الشجري ، وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءته معاني الزجاج (★) وسمعت الحديث المسلسل وهو الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء *

وقال أيضا موفق الدين البغدادي، ان من مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد أمين الدولة بن التلميذ وبالغ في وصفه وكثر * وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين والا فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة أو قريبا منها * وقال انه ورد الى بغداد رجل مغربي طوال في زى التصوف ، له أبهة ولسن مقبول الصورة عليه مسحة الدين وهيئة السياحة ينفع لصورته من رآه قبل أن يخبره يعرف بابن تاتلي يزعم أنه من أولاد المتلثمة (١) خرج من المغرب لما استولى عليها

(١) أي من قبائل الطوارق *

(★) بتشديد الجيم وفتحها *

عبد المؤمن فلما استقر ببغداد اجتمع اليه جماعة من الأكابر والأعيان ، وحضره الرضى القزوينى وشيخ الشيوخ ابن سكيته ، وكنت واحدا ممن حضره فأقرأنى مقدمة حساب ومقدمة ابن بابشاذ فى النحو ، وكان له طريق فى التعليم عجيب ومن يحضره يظن أنه متبحر وانما كان متطرفا ؛ لكنه قد آمن فى كتب الكيمياء والطلسمات وما يجرى مجراها ، وأتى على كتب جابر بأسرها وعلى كتب ابن وحشية ، وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وإيهامه فملأ قلبى شوقا الى العلوم كلها واجتمع بالامام الناصر لدين الله وأعجبه ثم سافر وأقبلت على الاشتغال وشمرت ذيل الجدى والاجتهاد وهجرت النوم واللذات ، واكبت على كتب الغزالي: المقاصد والمعيان والميزان ومحك النظر ثم انتقلت الى كتب ابن سينا صغارها وكبارها وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفاء وبحث فيه وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سينا وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان الصوفى وابن وحشية وبشرت عمل الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة * وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تم به فلسفته التى لا تزاد بالتمام الا نقصا *

قال : ولما كان فى سنة خمس وثمانين وخمسماية حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتى لكن وجدت الكمال بن يونس جيدا فى الرياضيات والفقه متطرفا من باقى أجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها * واجتمع الى جماعة كثيرة وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التى تحتها وأقامت بالموصل سنة فى اشتغال

دائم متواصل ليلا ونهارا * وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا من أحد قبلي ما رأوا مني من سعة المحفوظ وسرعة الخاطر وسكون الطائر * وسمعت الناس يهرجون في حديث الشهاب السهروردي المتفلسف ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء فهممت لقصده ثم أدركني التوفيق فطلبت من ابن يونس شيئا من تصانيفه وكان أيضا معتقدا فيها فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج فصادت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان ووجدت لي تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأحمق * وفي أثناء كلامه ثبت حروفا مقطعة يوهم بها أمثاله أنها أسرار الهية *

قال : ولما دخلت دمشق ، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كثيرا * منهم جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبي النجيب وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء وابن طلحة الكاتب ، وبيت ابن جهير وابن العطار المقتول الوزير وابن هبيرة الوزير * واجتمعت بالكندی البغدادي النحوي وجرت بيننا مباحثات فأظهرني الله تعالى عليه في مسائل كثيرة ، ثم اني أهملت جانبه فكان يتأذى باهمالي له أكثر مما يتأذى الناس منه * وعملت بدمشق تصانيف جمّة منها : غريب الحديث الكبير ، جمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابي وكنت ابتدأت به في الموصل وعملت له مختصرا سمّيته المجرد ، وعملت كتاب الواضحة في اعراب الفاتحة نحو عشرين كراسا ، وكتاب الألف واللام ، وكتاب رب ، وكتوبا في الذات والصفات الذاتية الجارية على السنة المتكلمين ، وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندی * ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن تاتلي نازلا بالماذنة الغربية ،

وقد عكف عليه جماعته وتحزب الناس فيه حزبين : له وعليه . فكان الخطيب الدولعي عليه وكان من الأعيان له منزلة وناموس ثم خلط ابن تاتلى على نفسه فأعان عدوه عليه وصار يتكلم فى الكيمياء والفلسفة وكثر التشنيع عليه واجتمعت به فصار يسألنى عن أعمال اعتقد أنها خسيصة نزره ؛ فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها منى وكاشفته فلم أجده كما كان فى نفسى فسأه به ظنى وبطريقته ثم باحثته فى العلوم فوجدت عنده منها أطرافا نزره فقلت له يوما : لو صرفت زمانك الذى ضيعته فى طلب الصنعة الى بعض العلوم الشرعية أو العقلية كنت اليوم فريد عصرك مخدوما طول عمرك وهذا هو الكيمياء لا ما تطلبه . ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله . والسعيد من وعظ بغيره فأقلعت لكن لا كل الاقلاع . ثم انه توجه الى صلاح الدين بظاهر عكا يشكو اليه الدولعي ، وعاد مريضا وحمل الى البيمارستان فمات به ، وأخذ كتبه المعتمد شحنة دمشق وكان متيما بالصنعة .

ثم انى توجهت الى زيارة القدس ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمعت ببهاء الدين شداد قاضى العسكر يومئذ وقد اتصلت به شهرتى بالمرسل فانبسط الى وأقبل على وقال : نجتمع بعماد الدين الكاتب . فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة . وقال : هذا كتاب الى بلدكم . وذاكرنى فى مسائل من علم الكلام ، وقال : قوموا بنا الى القاضى الفاضل ، فدخلنا عليه . فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملى على اثنين ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه فى اخراج الكلام كأنه يكتب بجملته أعضائه . وسألنى القاضى الفاضل عن قوله سبحانه تعالى : « حتى اذا

جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنوها ، أين جواب اذا ؟
 وآين جواب لو في قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سرت به
 الجبال » ؟ وعن مسائل كثيرة ومع هذا فلا يقطع الكتابة
 والاملاء وقال لي : ترجع الى دمشق وتجرى عليك الجرايات ،
 فقلت : أريد مصر ، فقال : السلطان مشغول القلب
 بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها . فقلت : لا بد لي
 من مصر ؛ فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها فلما دخلت
 القاهرة جاءني وكيله وهو ابن سناء الملك ، وكان
 شيخا جليل القدر نافذ الأمر فأنزلني دارا قد أزيحت عليها
 وجاءني بدنانير وغلة . ثم مضى الى أرباب الدولة وقال : هذا
 ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل
 جانب . وكانت كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة
 القاضي الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل
 يؤكد الوصية في حقى وأقمت بمسجد الحاجب رحمه الله
 أقرىء الناس وكان قصدي في مصر ثلاث أنفس : ياسين
 السيميائي ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي ،
 وأبو القاسم الشارعي . وكلهم جاءوني . أما ياسين
 فوجدته محاليا كذابا مشعبذا ، يشهد للشاقاني
 بالكيمياء ويشهد له الشاقاني بالكيمياء ويقول عنه
 انه يعمل أعمالا يعجز موسى بن عمران عنها ، وانه يحضر
 الذهب المضروب متى شاء وبأى مقدار شاء وبأية سكة شاء
 وانه يجعل ماء النيل خيمة يجلس فيها وأصحابه تحتها . وكان
 ضعيف الحال . وجاءني موسى فوجدته فاضلا في الغاية ،
 قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا وعمل كتابا
 في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب
 أخرى وشرط أن لا يغير فيه حرفا الا أن يكون واو عطف أو
 فاء وصل وانما ينقل فصولا يختارها . وعمل كتابا لليهود

سماء كتاب الدلالة ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفصل أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها * وكنت ذات يوم بالمسجد وعندى جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع ورفعوه فوقهم وأخذت فى اتمام كلامى فلما تصرم المجلس جاءنى امام المسجد وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا أبو القاسم الشارعى فاعتنقته وقلت : اياك أطلب ، فأخذته الى منزلى واكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته كما تشتهى الأنفس وتلد الأعين سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته قد رضى من الدنيا بمرض لا يتعلق منها بشيء يشغله عن طلب الفضيلة * ثم لازمنى فوجدته قيما بكتب (★) القدماء وكتب أبى نصر الفارابى ، ولم يكن لى اعتقاد فى أحد من هؤلاء ؛ لأنى كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه واذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسان ويغلبنى بقوة الحجة وظهور المحجة * وأنا لا تلين قناتى لغمزه ولا أحميد عن جادة الهوى والتعصب برمزه ، فصار يحضرنى شيئاً بعد شيء من كتب أبى نصر والاسكندر وثامسطيوس يؤنس بذلك نفارى ويلين عريكة شماسى حتى عطفت عليه أقدم رجلا وأوخر أخرى * وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت الضرورة الى التوجه اليه فأخذت من كتب القدماء ما أمكننى وتوجهت الى القدس ، فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة قريبا بعيدا سهلا مجيبا وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى : «ونزعنا ما فى صدورهم من غل» * وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل يتذاكرون فى أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة ويأخذ فى

(★) قيم الكتب بمثابة أمين المكتبة *

كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع * وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ويتأسي به جميع الناس : الفقهاء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل * ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر يأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ويركب العصر ويرجع في المشرع ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا * فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار، ورجعت الى دمشق واكبت على الاشتغال واقراء الناس بالجامع ، وكلما أمعنت في كتب القدماء ازدادت فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة واطلعت على بطلان الكيمياء ، وعرفت حقيقة الحال في وضعها ومن وضعها وتكذب بها وما كان قصده في ذلك وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين وتضاعف شكرى لله سبحانه وتعالى على ذلك ، فان أكثر الناس انما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء ثم ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ثم رجع فحرم ففصده من لا خبرة عنده ؛ فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء وما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه ؛ لأنه كان محبوبا يحبه البر والفاجر والمسلم والكافر * ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادى سبأ ومزقوا في البلاد كل ممزق أكثرهم توجه الى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها ، وأقامت بدمشق وملكها الملك الأفضل وهو أكبر الأولاد في السن الى أن جاء الملك العزيز بمساكر مصر يحاصر أخاه بدمشق فلم ينل منه بغية * ثم

تأخر الى مرج الصفرلة (★) وعرض له لنج فخرجت اليه بعد خلاصه منه ، فأذن لي فى الرحيل معه وأجرى على من بيت المال كفايتى وزيادة وأقمت مع الشيخ أبى القاسم يلزمنى صباح مساء الى أن قضى نحبه * ولما اشتد مرضه وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه أثرت عليه بدواء فأنشد :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
ثم سألته عن ألمه ، فقال : ما لجرح بميت ايلام *

وكانت سيرتى فى هذه المدة أنى أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون وفى الليل أشتغل مع نفسى ولم أزل على ذلك الى أن توفى الملك العزيز ، وكان شابا كريما شجاعا كثير الحياء لا يحسن قول لا وكان مع حداثة سسنه وشره شبابه كامل العفة عن الأموال والفروج *

(أقول) : ثم ان الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة وله الراتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين وأتى الى مصر ذلك الغلاء العظيم والموتان الذى لم يشاهد مثله * وألف الشيخ موفق الدين فى ذلك كتابا ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل وتسمى ذلك الكتاب كتاب « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ، ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين وانتزع ملكهم ، توجه الشيخ موفق الدين الى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد الى الجامع الأقصى ، ويشغل الناس عليه بكثير من العلوم وصنف هنالك كتبا كثيرة * ثم انه توجه الى

دمشق ونزل بالمدرسة العريزية بها وذلك في سنة أربع وستمائة ، وشرع في التدريس والاشتغال وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرءون أصنافا من العلوم ، وتميز في صناعة الطب بدمشق وصنف في هذا الفن كتبا كثيرة وعرف به . وأما قبل ذلك فانما كانت شهرته بعلم النحو . وأقام بدمشق مدة وانتفع الناس به ، ثم انه سافر الى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان . وكان مكينا عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة وصنف باسمه عدة كتب . وكان هذا الملك على الهمة كثير الحياء كريم النفس ، وقد اشتغل بشيء من العلوم ولم يزل في خدمته الى ان استولى على ملكه صاحب أرزن الروم ، وهو السلطان كيغباذ بن كيخسرو بن قلع أرسلان ثم قبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر .

(قال) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف : ولما كان في سابع عشر ذى القعدة من سنة خمس وعشرين وستمائة توجهت الى أرزن الروم وفي حادى عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمائة رجعت الى أرزنجان من أرزن الروم وفي نصف ربيع الأول توجهت الى كمانخ وفي جمادى الأولى توجهت منها الى دبركى ، وفي رجب توجهت منها الى ملطية وفي آخر رمضان توجهت الى حلب ، وصلينا صلاة عيد الفطر بالبهنساء ودخلنا حلب يوم الجمعة تاسع شوال فوجدناها قد تضاعفت عمارتها وخيرها وأمنها يحسن سيرة أتاك شهاب الدين واجتمع الناس على محبته لمعدلته في رعيته .

(أقول) : وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه وكثرت تصانيفه ، وكان له من شهاب الدين

طغريل الخادم أتاك حلب جار حسن وهو متفرغ لتدريس صناعة الطب وغيرها ويتردد الى الجامع بحلب ليسمع الحديث ويقرىء العربية * وكان دائم الاشتغال ملازماً للكتابة والتصنيف ولما أقام بحلب قصدت أن أتوجه اليه وأجتمع اليه وأجتمع به ، فلم يتفق ذلك وكانت كتبه أبداً تصل اليها ومراسلاته ، وبعث الى أشياء من تصانيفه من خطه .

(وهذه) نسخة كتاب كتبت اليه لما كان بحلب : المملوك بواصل بدعائه وثنائه وشكره وانتمائه الى عبودية المجلس السامى المولوى السيدى السندى الأجل الكبيرى العالمى الفاضلى موفق الدين سيد العلماء فى الغابرين والحاضرين جامع العلوم المتفرقة فى العالمين ولى أمير المؤمنين أوضح الله به سبل الهداية وأثار ببقائه طرق الدراية وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية ، ولا زالت سعادته دائمة البقاء وسيادته سامية الارتقاء وتصانيفه فى الآفاق قدوة العلماء وعمدة سائر الأدباء والحكماء * المملوك يجدد الخدمة ويهدى من السلام أطيبه ومن الشكر والثناء أعذبه ، وينهى ما يكايده من أليم التلطمع الى مشاهدة أنوار شمس المنيرة ، وما يعانيه من الارتياح الى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة وما تزايد من القلق وتعاضم عند سماعه قرب المزار من الأرق :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الديار من الديار

ولولا أمل قفول الركاب العالى ووصول الجنب الموفقى الجلالى ، لسارع المملوك الى الوصول ، ولبادر المبادرة بالمثل ، ولجاء الى شريف خدمته وفاز بالنظر الى بهى طلعتة * فيا سعادة من فاز بالنظر اليه ويا بشرى من مثل بين يديه ويا سرور من حظى بوجه اقباله عليه ، ومن ورد بحار فضله

من نميرها واستضاء بشمس علمه فسرى في ضياء نميرها
نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع وتحصيل الجمع بين مسرتي
الابصار والاسماع بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى *

(ومن مراسلات) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف أنه
بعث الى أبي في أول كتاب وهو يقول فيه عنى : ولد الولد
أعز من الولد وهذا موفق الدين ولد ولدى وأعز الناس عندي
وما زالت النجابة تتبين لي فيه من الصغر * ووصف وأثنى
كثيرا * وقال فيه : ولو أمكنني أن آتي اليه بالقصد ليشغل
على لفعلت * وبالجمل ، فانه قد عزم أن يأتى الى دمشق ويقيم
بها ثم خطر له أنه قبل ذلك يحج ويجعل طريقه على بغداد ،
وأن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما
وصل بغداد مرض في أثناء ذلك وتوفاه رحمه الله يوم الأحد
ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمئة * ودفن
بالوردية عند أبيه ، وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقي
غائبا عنها خمسا وأربعين سنة ، ثم ان الله تعالى ساقه اليها
وقضى منيته بها *

(ومن) كلام موفق الدين عبد اللطيف البغدادي مما
نقلته من خطه قال : ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت
الى منامك وتنظر ما كسبت فى يومك من حسنة فتشكر الله
عليها ، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وترتب فى
نفسك مما تعمله فى غدك من الحسنات وتسأل الله الاعانة
على ذلك * وقال : أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وان
وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالأستاذين فى كل علم
تطلب اكتسابه ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى
تجد أكمل منه وعليك بتعظيمه وتوقيره ، وان قدرت أن تفيد
من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك واذا قرأت كتابا ،
فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم

أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه لا تحزن لفقده ، وإذا كنت مكباً على دراسة كتاب وتفهمه فايك أن تشتغل بآخر معه واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره اليك وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله ، فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر ولا تظن أنك إذا حصلت علماً فقد اكتفيت ، بل تحتاج إلى مراعاته لينمى ولا ينقص ومراعاته تكون بالذاكرة والتفكير واشتغال المبتدئ بالتحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف ، وإذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره ، فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه • وكمن يستعين بلغة أخرى إذا ضاقت عليه أو جهل بعضها قال : وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم • قال : وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول فاقراً لسيرة النبي ﷺ ، وتتبع أفعاله وأحواله واقتف آثاره وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطبيه وتمتعه وتطليه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد • قال : وينبغي أن تكثراتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداء الزلل ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء ، لم يعرق في الفضيلة ومن لم يبجلوه ، لم يبجله الناس ومن لم ييكتوه ، لم يسود ومن لم يحتمل ألم التعلم ،

لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح ، لم يفلح وإذا خلوت من
التعلم والتفكير ؛ فحرك لسانك بذكر الله وبتسايحه وخاصة
عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن في خيالك وتتكلم به في
منامك وإذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا ؛ فاذكر
الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات وإذا أحزنك أمر ،
فاسترجع وإذا اعترتك غفلة ؛ فاستغفر واجعل الموت نصب
عينك والعلم والتقى زادك الى الآخرة وإذا أردت أن تعصى
الله ، فاطلب مكانا لا يراك فيه • واعلم أن الناس عيون الله
على العبد يريهم خيره وان أخفاه ، وشره وان ستره فباطنه
مكشوف لله والله يكشفه لعباده فعليك أن تجعل باطنك خيرا
من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ولا تتألم إذا أعرضت
عنك الدنيا فلو عرضت لك ، لشغلتك عن كسب الفضائل •
وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة الا أن يكون شريف الهمة
جدا أو أن يشرى بعد تحصيل العلم ، وانى لا أقول ان الدنيا
تعرض عن طالب العلم بل هو الذى يعرض عنها ، لأن همته
مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا والدنيا انما
تحصل بحرص وفكر في وجوها فاذا غفل عن أسبابها لم
تأته • وأيضا فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع
الردلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات وعن التدلل
لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخواننا بيت
شعر :

من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل
وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق
فيها وصرف الزمان اليها والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من
ذلك ، وانما ينتظر أن تأتية الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير
أن يطلبها طلب مثلها وهذا ظلم منه وعدوان ولكن اذا تمكن

الرجل فى العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة ، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه مصون ، واعلم أن للعلم عبقة وعرفا ينادى على صاحبه ونورا وضياء يشرق عليه ويدل عليه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته ولكن يمشى بمشعل فى ليل مدلهم * والعالم مع هذا محبوب أينما كان وكيفما كان لا يجد إلا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح بمدايناتهِ واعلم أن العلوم تغور ثم تغور ، تغور فى زمان وتغور فى زمان * بمنزلة النبات أو عيون المياه وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع * (ومن) كلامه أيضا نقلته من خطه قال : اجعل كلامك فى الغالب بصفات أن يكون وجيزا فصيحاً فى معنى مهم أو مستحسن فيه الغاز ما وإيهام كثير أو قليل ولا تجعله مهملاً ككلام الجمهور بل رفعه عنهم ولا تباعده عليهم جدا * وقال : اياك والهذر والكلام فيما لا يعنى ، وإياك والسكوت فى محل الحاجة ورجوع النوبة اليك اما لاستخراج حق أو اجتلاب مودة أو تنبيه على فضيلة وإياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبتير الكلام بل اجعل كلامك سردا بسكوت بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه وانه عن خميرة سابقة ونظر متقدم * وقال : اياك والغلظة فى الخطاب والجفاء فى المناظرة ، فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعدم حلاوته ويجلب الضفائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلاً سكوته أشهى الى السامع من كلامه ويشير النفوس على معاندته ويبسط الألسن بمخاشنته وازهاب حرمة * وقال : لا ترتفع بحيث تستثقل ولا تتنازل حيث تستخس وتستحق * وقال : اجعل كلامك كله جزلاً ، وأجب من حيث تعقل لا من حيث تعناد وتألف * وقال : انتزح عن عادات الصبا وتجرد عن مألوفات الطبيعة

واجعل كلامك لاهوتيا في الغالب لا ينفك من خبر أو قرآن
أو قول حكيم أو بيت نادر أو مثل سائر • وقال : تجنب
الوقية في الناس وثلب الملوك والغلبة على المعاشرة
وكثرة الغضب وتجاوز الحد فيه • وقال : استكثر من
حفظ الأشعار الأمثالية والنوادر الحكيمة والمعاني
المستغربة • (ومن) دعائه رحمه الله قال : اللهم أعذنا من
شموس الطبيعة وجموح النفس الردية وسلس لنا مقادا
لتوفيق ، وخذ بنا في سواء الطريق يا هادي العمى يا مرشد
الضلال يا محيي القلوب الميتة بالايمن يا منير ظلمة الضلالة
بنور الانقاذ خذ بأيدينا من مهواة الهلكة نجنا من ردة
الطبيعة طهرنا من درن الدنيا الدنية بالاخلاص لك والتقوى
انك مالك الآخرة والدنيا •

من كتاب

الإفادة والاعتبار في الأمور

المشاهدة والتجارب المعينة

بأرض مصر

المقالة الأولى

الفصل الأول

فى خواص مصر العائمة

ان أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار ، الغربية الأخبار .
وهى واد يكتنفه جبالان شرقى وغربى . والشرقى أعظمهما .
يبتديان من أسوان ويتقاربان باسنا (١) حتى يكادا يتماسان
ثم ينفرجان قليلا قليلا . وكلما امتدا طولاً انفرجا عرضاً
حتى اذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه .
ثم يتباعدان أكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب
بأسافل الأرض وجميع شعبه تصب فى البحر المالح (٢) .

وهذا النيل له خاصتان : الأولى - بعد مرماه . فانا
لا نعلم فى المعمورة نهراً أبعد مسافة منه ؛ لأن مباديه عيون

(١) اسنا الحالية وهى من المدن القديمة ، وكان اسمها المقدس هو مات خنومو
Hat Khounoumou ويعنى قصر الاله خنومو . واسمها القبطى سننى Seni
أو سنا Sna أو اسنى Esni ومنه اسمها العربى : اسنا واسماها الرومان
لاتوبولس Latopolis ، وهى غربي النيل ، وأشار إليها الأسعد بن ممتى فى كتابه
قوانين الدواوين باعتبارها من أعمال قوص . القاموس الجغرافى لمحمد رمزي ج ٤ من
القسم الثانى ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) المقصود بأسافل الأرض منطقة الدلتا ، وقد استخدم المؤلف هذا التعبير للدلالة
على الدلتا فى أكثر من موضع من كتابه ، ويفهم من التعبير أنه كان للنيل أكثر من فرعين
فى أواخر القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) .

تأتى من جبل القمر وزعموا أن هذا الجبل وراء خط الاستواء
بأحدى عشرة درجة * وعرض أسوان وهى مبدأ أرض مصر
اثنان وعشرون درجة ونصف درجة * وعرض دمياط وهى
أقصى أرض مصر إحدى وثلاثون درجة وثلث درجة * فتكون
مسافة النيل على خط مستقيم ثلاثا وأربعين درجة تنقص
سدسا ومساحة ذلك تقريبا تسعمائة فرسخ ، هذا سوى
ما يأخذ من التعريج والتوريب فان اعتبر ذلك تضاعفت
المساحة جدا *

والخاصة الثانية - أنه يزيد عند نضوب سائر الأنهار
ونشيش (٣) المياه ؛ لأنه يبتدىء بالزيادة عند انتهاء طول
النهار وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفى وحينئذ تفتح
الشرع وتفيض على الأراضى * وعلة ذلك أن مواد زيادته
أمطار غزيرة دائمة وسيول متواصلة تمده فى هذا الأوان فان
أمطار الاقليم الأول والثانى انما تنزر فى الصيف والقيظ *

وأما أرض مصر فلها أيضا خواص منها أنه لا يقع بها
مطر الا ما لا احتفال به (٤) وخصوصا صعيدها ، فأما أسافلها
فقد يقع بها مطر جود لكنه لا يفى بحاجة الزراعة * وأما
دمياط والاسكندرية وما داناها فهى غزيرة المطر ومنه
يشربون وليس بأرض مصر عين ولا نهر سوى نيلها *

ومنها أن أرضها رملية لا تصلح للزراعة ؛ لكنه يأتيها

(٣) نشيش المياه جفافها ، وهى لسان العرب لابن منظور : « نَسَّ الغدير والحوض يشن
شانا ونشيشا ، يابس ماؤها ونحب ، وقيل، شَنَّ الماء على وجه الأرض شَنًّا وجف
وشن الرطب ونرى أى ذهب ماؤه ٠٠٠ » ولعل ارتباط قلة العمل أو انعدامه فى العامية
المصرية بتعبير « النش » راجع لهذا ، فاذن خفت المياه فلا زراعة ولا عمل وجلس الفلاح
« بنش » ولا علاقة لذلك بنش الذباب أو غيره وانما لهذه الكلمة العامية كما اتضح الآن أصل
مصري وطاردها تاريخية وجغرافية *

(٤) لا احتفال به تعبير يعيد أنه - أى المطر - قليل *

طين أسود علك (٥) فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز يأتيتها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينضب الماء فيحترث ويزرع • وكل سنة يأتيتها طين جديد ؛ ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شىء منها كما يفعل فى العراق والشام لكنها يخالف عليها الأصناف • وقد لحظت العرب ذلك فأنها تقول : اذا كثرت الرياح جادت الحراثة ؛ لأنها تجىء بتراب غريب ، وتقول أيضا : اذا كثرت المؤتفكات (٦) زكا الزرع • ولهذه العلة تكون أرض الصعيد زكية كثيرة الأتاء والريع اذا كانت أقرب الى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الأرض فأنها أسافة مضوية اذ كانت رقيقة ضعيفة الطين ؛ لأنه يأتيتها الماء وقد راق وصفا ولا أعرف شبيها بذلك الا ما حكى لى عن بعض جبال الاقليم الأول أن الرياح تأتية وقت الزراعة بتراب كثير ثم يقع عليه المطر فيتلبد فيحترث ويزرع فاذا حصد ؛ جاءته رياح أخرى فنسفته حتى يعود أجرد كما كان أولا • ومنها أن الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التى لها فان أخص الأوقات باليبس فى سائر البلاد أعنى الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه لأنه يمد فى الصيف ويطبق الأرض فى الخريف •

(٥) فى لسان العرب « شىء علك بفتح العين وكسر اللام أى لزج ، وعلك الشىء يعلكه علدا أى مضغه حتى صيره لرجا » ، وقد ورد الفعل لدى السعراء الجاهلين وهن ذلك قول النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج ، وأخرى تعلق للجمال

ولازالت الكلمة مستخدمة فى العامية الشامية بمعنى اللسان وهو السوء المفضوغ المعروف اذ يسمونه علكة •

(٦) المؤتفكات : الرياح التى نقلب الأرض ، والمؤتفكات أيضا الرياح التى تختلف مهاجها • تقول العرب . اذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض أى زكا زرعها •

فأما سائر البلاد فإن مياهها تنش في هذا الأوان وتغزر في
أخص الأوقات بالرطوبة - أعنى الشتاء والربيع - ومصر
اذ ذاك تكون في غاية القحولة واليبس ولهذه العلة تكثر
عفوناتها واختلاف هوائها وتغلب على أهلها الأمراض العفنية
الحادثة عن أخلاط صفراوية وبلغمية ، وقلما تجد فيهم
أمراضا صفراوية خالصة ، بل الغالب عليها البلغم حتى في
الشباب والمحوررين * وكثيرا مايكون مع الصفراخام * وأكثر
أمراضهم في آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلب عليها
حميد العاقبة وتقل فيهم الأمراض الحادة والدموية الوحية ،
وأما أصحابهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون
وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم ، وأما
صبيانهم فضاوون يغلب عليهم الدسامة وقلة النظارة وانما
تحدث لهم البدانة والقسامة غالبا بعد العشرين *

وأما ذكاؤهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة
بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية * ولهذا كان أهل الصعيد
أفعل جسوما وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة وكان
ساكنو الفسطاط الى دمياط أرطب أبدانا والغالب عليهم
البياض * ولما رأى قدماء المصريين أن عمارة أرضهم انما هي
بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل
الغاية القصوى من الزيادة *

ومنها أن الصبا (٧) محجوبة عنهم بجبلها الشرقي المسمى
المقطم ، فانه يستتر عنها هذه الريح الفاضلة وقلما تهب عليهم

(٧) الصبا ريح معروفة تقابل الدبور ، وفي الصباح : الصبا ريح ومهبها المستوى
أن تهب من موضع مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار * عن لسان العرب لابن
منظور / مادة : ص. ب. و *

خالصة اللهم الا نكبنا . ولهذا اختار قدماء المصريين أن يجعلوا مستقر الملك منف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقى الى الغربى واختار الروم الاسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط؛ لقربه من المقطم فان الجبل يستتر عما فى لحفه أكثر مما يستتر عما بعد منه . ثم ان الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقل فى هوائهم النضج ويبقى زمانا على نهوة الليل؛ ولذلك تجد المواضع المنكشفة للصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ولكنرة رطوبتها يتسارع العفن اليها ، ويكثر فيها الفار ويتولد من الطين والعقارب وتكثر بقوص (٨) كثيرا ما تقتل بلبسها والبق المنتن والذباب والبراغيث تدوم زمانا طويلا .

ومنها أن الجنوب اذا هبت عندهم فى الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جدا ويسمونها المريسى (٩) لمرورها على أرض المريس وهى من بلاد السودان . وسبب بردها مرورها على برك ونقائع . والدليل على صحة ذلك انها اذا دامت أياما متوالية عادت الى حرارتها الطبيعية واسخنت الهواء وأحدثت فيه ييبسا .

(٨) قوص ، من النواحي القديمة واسمها الاصلى قمولة ، والقبطى Kamouli غرب النيل ، ومن قراها القديمة الحراجيه ، والشعرانى والمسيد والمرجيه وجراجوس ودنيق وشنهو وطلوخ وعباسه . عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لـ محمد رمزى ق ٢ / ج ٤ / ١٨٣ - ١٩١ .

(٩) هناك أيضا مناطق وقرى فى مصر يطلق عليها اسم المريس ، ومن ذلك قرية بهذا الاسم تابعة للاقصر وهى من القرى القديمة . القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لـ محمد رمزى ق ٢ / ج ٤ / ص ١٦٣ .

الفصل الثاني

فيما تختص به من النبات

من ذلك البامية (١) وهى ثمر يقدر ابهام اليد كأنه جراً (٢) القثاء شديد الخضرة ، الا أن عليه زيبر (٣) مشوكا وهو مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع فاذا شق انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز * وفى تلك الأبيات حب مصطف مستدير أبيض أصغر من اللوبيا (٤) هش يضرب الى الحلاوة وفيه قبض ولعابية كثيرة يطبخ أهل مصر به اللحم بأن يقطع مع قشوره صفارا ويكون طعاما لا بأس به ، الغالب على

-
- (١) من الفصيلة الخبازية ثمارها تؤكل مطبوخة قبل أن تقسو أى قبل أن تقترب من الجفاف ، وقد اعتمد معجم الشهابى لمصطلح العلوم الزراعية ما أورده عبد اللطيف البغدادى فى الافادة والاعتبار (وهو الكتاب الذى بين ايدينا الآن) كمصدر أساسى لتوثيق اللفظ العربى . المقابل العلمى : *Hibiscus esculentus* .
- معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ، ماده *okra* .
- معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط عربى — انجليزى — ماده بامية .
- (٢) جراً بدون همز ، والهمز فى هذه الطبعة خطأ مطبعى ، وهو الجرو (بكسر الجيم) والجروه (بكسر الجيم أيضا) الصغير من نخل شىء حتى من الحنظل والبطيخ والقثاء والرمان والخيار والبادنجان ... الخ . راجع لسان العرب لابن منظور مادة (جرو) .
- (٣) فى لسان العرب : الزبرة الشعر المجتمع للفحل والاسد وغيرها .. ورجل أظبر كثير الشعر ، وكل شعر مجتمع فهو زبرة ، والمقصود أن على البامية ما يشبه الوبر أو الزغب .
- (٤) المقصود يسميه اللوبيا .

طبعه الحرارة والرطوبة ولا يظهر في طبيخه قبض بل لزوجة .

ومن ذلك الملوخية ويسميتها الأطباء الملوكية . ولعمري هي الخبازي البستاني ، والخطمي (٥) أيضا نوع من الخبازي (٦) البري . والملوخية أشد مائية ورطوبة من الخبازي وهي باردة رطبة في الأولى تزرع في الباقل (٧) ويطبخ لها اللحم ، وهي كثيرة المعابية وتزرع أيضا بالشام قليلا ويطبخ بها عندهم في الندرة وهي ردية للمعدة ؛ لكنها تسكن الحرارة وتبرد ويسرع انحسارها لتزلقها . قال الاسرائيلي (٨) : رأيت نوعا ثالثا من الخبازي يسمى بمصر ملوخية السودان ويعرف بالعراق بالشوشنديا وقوته وفعله وسط بين الملوخية والخبازي ؛ لأنه أقل غذاء من الملوخية وأكثر من الخبازي .

(٥) خطمي أو خطمي جنس نبات من الخبازيات فيه أنواع برية ومن أنواعه المشهورة الخطمي الوردي . أشار اليه الشهابي في معجمه تحت المصطلحين التاليين *Althaea* و *Ketmia* ، ويلاحظ أن المصطلح الأول تحريف للكلمة العربية . وقد أورد الشهابي أنواعا عديدة منه يستبعد أن تكون ما أشار اليه البغدادي منها :

— وردة العين — يزرع لزهرة .

— خطمي المنافع — يزرع لزهرة .

— خطمي عسكري — يزرع لزهرة .

— وخطمي وردى أو دمشقي *Alcea Rosea* .

راجع معجم المصطلحات العلمية لخياط ، ومعجم الشهابي .

(٦) خبازة (بتشديد الباء وفتحها) أو خباز أو خباري (بالفتح مقصورة — بفتح الزاي) والخبيز هو جنس نبات من الفصيلة الخبازية فيها أنواع تستخدم في الطب وأنواع تؤكل بطبخ ورقه . وردت في معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية تحت *Malva* . راجع : معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط / مادة خسر ومعجم الشهابي — مادة *Malva* .

(٧) تزرع في الباقل أي في أرض لا شجر فيها ، وفي ابن منظور « قال ابن جنى : مكان مبلل هو القياس ، وباقل أكثر في السماع ، والاول مسموع أيضا » وقال الاصمعي : أبقل المكان فهو باقل من نبات البقل ، وأورس الشجر فهو وأرس إذا أورق . . . والبقل هو ما لا تبقى له أرومة بعد أن يرمى ، وفي المثل : لا تنبت البقلة إلا الحقلة ، والحقلة هي الأرض الطيبة .

(٨) عن الاسرائيلي راجع المقدمة .

ومن ذلك اللبخ (٩) وشجرته - كالسدره (١٠) - ريا
نضرة وثمرته بقدر الخلال الكبار وفي لونه ، الا انه مشبع
الخضرة كلون المسن ، وما دام فجا ففيه قبض كما في البلح
فاذا نضج طاب وحلا وعادت فيه لزوجته ونواته كنواة
الأجاص (١١) أو كقلب اللوزة بيضاء الى الغبرة وتكسر
بسهولة ، فتتفلق عن لوزة ريا بيضاء ليثة واذا بقيت ثلاثة
أيام ضمرت وصلبت * وكلما تطاول عليها الزمن اضمحل
اللب وبقي القشر فارغا أو كالفارغ ، غير أنه لا يتشنج بل
يتقلقل اللب فيه لسعة المكان عليه ، وتجد في طعم اللب
مرارة ظاهرة ولذا يبقى أثره في اللسان مدة * وقد
حدثت على أنه أحد ضروب الدند (١٢) الثلاثة ، فقد قال

(٩) اللبخ ، شجر من فصيلة القرنيات ، الواحدة لبخة وردت في معجم الشهابي عند :
Lebbek tree ، Lebbek Albizna .

— عن معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط ، ومعجم الشهابي لمصطلحات العلوم
الزراعية *

(١٠) المقصود هنا شجر النبق * معجم المصطلحات العلمية لخياط *
(١١) الأجاص — في معجم الشهابي أن عبد اللطيف البغدادي أشار اليه في كتاب
الافادة والاعتبار (وهو الكتاب الذي بين أيدينا الآن) وهو الخوخ أو خوخ الدب بالشام
وجعل له الشهابي مقابلا علميا Prunus Ursina (bear plum) وفي موضع آخر
يذكر معجم الشهابي أجاصا أهليا أو شائعا ، وهو النوع الزراعي المشهور يسمى
البرقوق في مصر والخوخ في الشام (مادة plum tree) .
(١٢) فيما يلي ما ورد في تذكرة داود عن نبات الدند :

(دند) هو المعروف الآن بمصر والشام بحبة الملوك وليس كذلك كما سيأتي ويسمى
الحروع الصيني ، منه ما يجلب من سمندور وتناهر وغيرهما من مدن الصين وهو أبيض
يضرِب ظاهره الى الصفرة دقيق القشر ونوع يجلب من كنيابة والدكن ويعرف بالهندي
ويقرب من الأول الا أن فيه نقطا سودا وصنف يجلب من الشجر وأطراف عمان أسود
هش لا يجوز استعماله لمرءاته وهذا الحب يكون تلى شجرة نحو ذراع ورقها كورق
المانجان لكن أثق يسيرا وزهره كالوانه يشب في غلف دقاق الى خضرة يدرك بمسرى
فاذا رفع تبقى قوته سبع سنين في بلده وثلاثة في غيرها وهو حار يابس في أول الربيع
ينفع من الاستسقاء واليرقان وأوجاع المفاصل والظهر والساقين والوركين والنقرس والخام
والحمى ويفتح السدد ويمنع الشيب ويسود الشعر والهند تستعمله في المعاجين الكبار
ولاهل الصين فيه مزيد رغبة من أدوية الاقاليم الباردة والمشايخ ولا يجوز لمضعاف
الأرواح كمصر والحجاز ولا لكثيبرى التحليل كالحبشة وهو مكرب مغث شديد المغص ***

أرسطو وغيره ان اللبخ كان بفارس سما قاتلا فنقل الى مصر فصار غذاء * وقال نيقولاوس : وأما اللبخ فقد كان فى أرض فارس قاتلا فنقل الى الشام والى مصر فصار جيدا مأكولا وهو قليل غال وانما تكون فى البلاد منه شجرات معدودات ، وأما خشبه ففى غاية الجودة صلب حجري وأسود وهو عزيز ثمين واهل مصر يحضرون اللبخ مع الفواكه والأنقال * وقال أبو حنيفة الدينورى (١٣) : اللبخ شجرة عظيمة مثل الاثاب (١٤) اذا عظم ، وورقها كورق الجوز ولها جنا كجنا (١٥) الحمام مر اذا كل أعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن ، وهو من شجر الجبال ، ثم روى عن رجل من صعيد مصر أن اللبخ شجر عظام أمثال الدلب (١٦) ، له ثمر أخضر يشبه الثمر حلو جدا ، الا أنه كرية جيد

= يحل القوى ويقيء وربما قتل الاسهال لمن لا يعرف قانونه وبين نصفى حبه اذا انقسمت لسان دقيق أشد ضررا من البيش فينبغى رفعه ويصلحه التبريد والبسفايج والزعفران والاشقيل والورد المنزوع والأنيسون والكثيرا والهندى مجموعة ومفردة فانه معها يستقى الاخلاط وينقى من الكيموسات الرديئة وينبغى شرب الماء البارد عليه واللبن ونحو رب الرياس والحصرم وشربته الى دانقين وفيه شعيذة اذا بليت به الاصبع ووضعت على جفن العين ورم يصلحه الشيرج أو الزيت وبدله حب النيل *

(١٣) أبو حنيفة الدينورى هو أحمد بن داود بن وند (بفتح الواو والنون الأولى وسكون النون الثانية) الدينورى (بتشديد الدال وفتحها وفتح النون وكسر الراء) ، وكنيته * أبو حنيفة * مهندس ومؤرخ وعالم نبات من كتبه المخلوغة : الأخبار الطوال ، وكتاب النبات ، وتفسير القرآن ١٣ مجلدا ، والشعر والشعراء ، والفصاحة والحدرد والمقابلة ، توفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م * الاعلام لخير الدين الزركلى / ج ١ ، ص ١٢٣ *

(١٤) الاثاب يشبه الجميز (بين الجميز والتين) الشهابى / مادة (Ficus) .

(١٥) الحمام ، بفتح الحاء والميم ، أورده معجم الشهابى تحت الاسم العلمى Ficus Pseudosy Compurus وهو الحمير الكاذب ويسمى أيضا تين الجبل * أما جنا فلعله خطأ مطبعى أو املائى ، والصحيح جنى ، وفى لسان العرب لابن منظور « وأجنت الشجرة اذا صار لها جنى يجنى فيؤكل » * لسان العرب / مادة (ح ن ي) ولم تجده فى (ج ن و) *

(١٦) الدلب من شجر الزينة (معجم المصطلحات الفنية) وفى معجم الشهابى ان اسمه أيضا هنار بكسر الصاد وهناك خلاف فى دلالات الاسم أوردها الشهابى *

لوجع الأضراس ، قال : واذا نشر أرغف ناشره وينشر فيبلغ ثمن اللوح خمسين دينارا ويجعله أصحاب المراكب في بناء السفن لبعض العلل ، وزعم أنه اذا ضم منه لوحان ضما شديدا وجعلا في الماء سنة التحما وصارا لوحا واحدا * وأكثر ما حكاه الدينوري لا أعرف صحته * وقال ابن سميون (١٧) : اللبخ يكون بمصر وثمرته جيدة للمعدة وقد يوجد عليه صنف من الرتيلاء (١٨) وورقه اذا جفف قطع الدم ذرورا ، والاسهال شربا ، وفيها قبض بين * قال : وأما نوى ثمره ، فيزعم أهل مصر أن أكله يحدث صمما *

ومن ذلك الجميز وهو بمصر كثير جدا ورأيت منه شيئا بمسقلان والساحل ؛ وكأنه تين برى وتخرج ثمرته في الخشب لا تحت الورق ويخلف في السنة سبعة بطون ويؤكل أربعة أشهر ويحمل وقرا عظيما وقبل أن يجيء بأيام يصعد رجل الى الشجرة معه حديدة يسم بها حبة حبة من الثمرة فيجري منها لبن أبيض ، ثم يسود الموضع وتحلو الثمرة بذلك الفعل * وقد يوجد منه شيء شديد الحلاوة أحلى من التين ؛ لكنه لا ينفك في أواخر مضغه من طعم خشبية ما * وشجرته كبيرة كشجرة الجوز العاتية ويخرج من ثمره وغصنه اذا فسد لبن أبيض اذا طلى على ثوب أو غيره صبغه أحمر *

(١٧) هو حامد بن سميون (بفتح السين وضم الجيم) وكنيته . أبو بكر * له كتاب في الأدوية * توفي حوالى سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠ م .
راجع عنه . طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة *

(١٨) الرتيلاء - بتشديد الراء وفتحها ويسمى أيضا الرتيلا بلا همز وهو عشب ينبت في شمال أفريقيا وأوربا ويسمى أحيانا جذامير ومفرده جذمور أو جذمار ، وأوراقه تشبه أوراق الحشائش وأزهاره بيضاء متدلّية ، ويسمى الرتيلاء أيضا نبات زهرة العنكبوت ، من الفصيلة الزمبقية Liliaceae وفى المعجم نفسه أن بذوره مدرة للطمث والبول وضد لدغ العقرب والعناكب السامة - معجم المصطلحات العلمية والفنية ليوسف خياط *

وخشبه تعمير به المساكن ويتخذ منه الأبواب وغيرها من الآلات الجافية. وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس . وقلما يتآكل هذا مع أنه خشب خفيف قليل اللدونة ويتخذ من ثمرته خل حاذق ونبيد حاذ .

قال جالينوس : الجميز بارد رطب فيما بين التوت والتين وهو رديء للمعدة ولبن شجرته له قوة مليئة تلصق الجراح وتفش الأورام ويلطخ على لسع الهوام ويحلل حساة الطحال وأوجاع المعدة ضمادا ، ويتخذ منه شراب للسعال المتقدم ونوازل الصدر والريه . وعمله بأن يطبخ في الماء حتى تخرج فيه قوته ويطبخ ذلك الماء مع السكر حتى ينعقد ويرفع . وقال أبو حنيفة : ومن أجناس التين تين الجميز وهو تين حلو رطب له معاليق طوال ويزبب ، وضرب آخر من الجميز حمة كالتين في الخلقة وورقه أصفر من ورق التين وتينه أصفر صفار وأسود ويكون بالقور ويسمى التين الذكر ، والأصفر منه حلو والأسود يدمى الفم وليس لتينه علاقة بل لاصق بالعود .

ومن ذلك البلسان (١٩) ، فإنه لا يوجد اليوم الا بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر. ثخين ، وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعري. بأن تشدخ السوق بعد ما يحث عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يقطع

(١٩) البلسان : أورده يوسف خياط في بلسم دون أن يذكر أنه هو البلسان وقال أنه نبات زراعى عطري من المركبات انبوبية الزهر . وضبطه معجم الشهابى بفتح الباء واللام وجعله مرادفا للزمان بفتح الخاء والميم ، أما المقابل الاجنبى فهو elder (Sambucus) .

القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء * فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه (٢٠) على العود فيجمعه باصبعه مسحا الى قرن فاذا امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفي الجذب وقلة الندى يكون اللثا أنزر (٢١) ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسائة ، وهي عام جذب ، نيف وعشرون رطلا * ثم تؤخذ القناني فتدفن الى القيظ وحماراة الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد الى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أخدا ثم يرفعه الى خزانة الملك * ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة * وقال لي بعض أرباب الخبرة ان الذي يحصل من دهنه نحسو من عشرين رطلا ورأيت جالينوس يقول : ان أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر * ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة وقال نيقولاوس في كتاب النبات : ومن النبات ما له رائحة طيبة في بعض أجزائه ومنه ما رائحته الطيبة في جميع أجزائه كالبلسان الذي يكون في الشام بقرب بحر الزفت والبير التي يسقى منها تسمى بير البلسم وماؤها

(٢٠) في لسان العرب لابن منظور اللثى شيء يسقط من الشجر وقيل اللثى شيء تنضج ساق الشجرة ، وقيل : اللثى ما دق من العلوك حتى يسيل فيجرى ويقطر * واللثى ما سال من ماء الشجر من ساقها وهناك من ينطقها لثا بالهمز *
(٢١) النزر أى القليل التافه ... بفتح النون وتسكين ما بعدها *

عذّب • وقال ابن سميون انما يوجد في زماننا هذا بمصر فقط ويستخرج دهنه عند طلوع كلب الجبار، وهو الشعري، وذلك في شباط ومقدار ما يخرج ما بين خمسين رطلا الى ستين ويباع في مكانه بضعفه فضة • وكانت هذه الحال قد كانت في زمن ابن سميون وحكى عبد الرازق أن بدله دهن الفجل وهذا بعيد والبلسان الدهنى لا يثمر وانما تؤخذ منه فسوخ فتغرس في شباط فتعلق وتنمى وانما الثمر للذكر البرى ولا دهن له ويكون بنجد وتهامه وبرارى العرب وسواحل اليمن وبأرض فارس ويسمى البشام ويربى قشره قبل استخراج دهنه فيكون نافعا من جميع السموم ، وأما خواصه ومنافعه فالآليق بها غير هذا الكتاب •

ومن ذلك القلقاس ، وهو أصول بقدر الخيار ومنه صفار كالأصابع يضرب الى حمرة خفيفة يقشر ثم يشقق على مثل السلجم (٢٢) وهو كشف مكتنز يشابه الموز الأخضر الفج في طعمه وفيه قبض يسير مع حرافة قوية وهذا دليل على حرافته ويبسه فاذا سلق زالت حرافته جملة وحدث له مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مغرية كانت فيه بالقوة ، الا أن حرافته كانت تخفيها وتستترها ولذلك صار غذاؤه غليظا بطيء الهضم ثقيل في المعدة ، الا أنه لما فيه من القبض والغلاصة صار مقويا للمعدة حابسا للبطن اذا لم يكثر منه • ولما فيه

(٢٢) السلجم أو الشلجم كما ورد في معجم يوسف خياط للمصطلحات العلمية هو اللفت • وفي المعجم نفسه أن الكلمتين اطلقتا في الاصطلاح الحديث ، أي منذ القرن الماضي (التاسع عشر) على هذا النبات ؛ لأن بعض النباتيين يجعلونه هو واللفت نوعا واحدا ، والسلجم من الفارسية نبات زراعى دهنى من الفصيلة « الصليبية » • وان صح ما ورد في المعجم يكون ما أشار اليه البغدادي ليس هو اللفت المعروف ، وانما بات شبيه به لأن البغدادي كتب كتابه سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٠ م • والمسألة تحتاج لبحث الاختصاصيين •

من اللزوجة والتغرية صار نافعا من سحج المعال (٢٣) ،
وقشره أقوى على حبس البطن من جرمة ؛ لأن قبضه أشد
ويطبخ في السماقية (٢٤) وغيرها فيعود في المرققة
لزوجة يعافها من لا يعتادها ، ولكن اذا سلق وصبت
سلاقتة ثم قلى بالدهن حتى يتورد فلا بأس به * والغالب على
مزاجه الحرارة والرطوبة ، ويظهر من حاله أنه مركب من
جوهريين : جوهر حار حريف يذهب بالطبخ وجوهر أرضي
مائي ينمو بالطبخ * وذلك كما في البصل والثوم وما كان
كذلك فهو نيئا دوائى ومطبوخا غذائى وقد رأيت به دمشق
لكن قليلا * ورأيت اذا يبس يرجع خشبيا كالقسط (٢٥)
سواء * وأما ورقه فورق مستدير واسع على شكل خف البعير
سواء لكنه أكبر منه ويكون قطر الورقة ما بين شبر أو شبرين
أو ورقة قضيب مفرد فى غلظ الاصبع وطول شبرين أو
أزيد وتنبات كل قضيب من الأصل الذى فى الأرض ، اذ ليس
لهذا النبات ساق ولا ثمر أيضا وورق القلقاس ، شديد
الخضرة رقيق البشرة شبيه بورق الموز فى خضرته ونعومته

(٢٣) سحج المعال - خطأ مطبعي فيما يبدو ، والصحيح سحج المعى ، يقول ابن
منظور : أخذ فى بطنه سحج اذا لان بطنه ، وسحج النعام أى القى ما فى بطنه ، وسحج
يسحج اذا رقى ما يجيء منه من الغائط (مادة س ج ج) ، والمعنى بفتح الميم والعين وكذلك
بكسر الميم وفتح العين من اعفاج البطن فيما يقول ابن سيده ، والجمع الامعاء ، والمعنى
هو واحد المصارين ، وفى الحديث : « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة
امعاء » ٠٠ من هذا يتضح وجود خطأ فى المخطوط أو لعله خطأ مطبعي لكننا نرجح الاحتمال
الأول .

(٢٤) فى لسان العرب لابن منظور : الساق بتشديد الميم وفتحها من شجر الجبال
وله ثمر حامض عناقيد فيه حب صغار يطبخ اما الحبة الحامضة التى يقال لها العررب
(بفتح الباء) فهو الساق (بتشديد السين وضمها) الواحدة ساقا (بضم السين
وتشديد الميم وفتحها) ، وقدر سماقية وعبرية بمعنى واحد (مادة : س م ق) *
(٢٥) خطأ فى المخطوط أو طبعة مجلة المصرى ، والصحيح قسطل ويسمى فى
الشام الكستنة ويسمى فى مصر أبو فروة * شجر من الفصيلة البهلوطية ، له ثمر يؤكل مشويا
وهو غنى بالنشأ .

ورونقه ونضارته • وقال ديوسقوريدس : ان لهذا النبات زهرا على لون الورد فاذا عقد عقد شيئا شبيها بالحراپ كأنه تفاحة الماء وفيه باقلى صغير أصغر من الباقلى اليونانى يعلو موضعه المواضع التى ليس فيها باقلى فمن أراد أن يزرعه قائما ، يأخذ ذلك الباقلى ويصيره فى كتل طين ويلقيها فى الماء فينبت • ورغم أنه يؤكل طريا ويابساً ، فإنه يعمل منه دقيق يشرب كالسويق ويعمل منه حسو فيقوى المعدة وينفع من الاسهال المرىء وسحوج الأمعاء (٢٦) • وان الشيء الأخضر الذى فى وسطه المر الطعم اذا سحق وخلط بدهن وقطر فى الأذن سكن وجعها •

وقال الاسرائيلى : أما نحن فشاهدنا له زهرا • قال : ورأيت أصل هذا النبات اذا خزن فى المنازل وجاء وقت نباته تفرع من الباقلى اللاصق به فروع وأنبت من غير أن يظهر له زهر ولا ثمر لكن لون الباقلاء نفسها كلون زهر الورد ؛ لأنها حين تبرز وتأخذ فى النبات يخرج ما يبرز منها حسن البياض يعلوه تورده يسير • قال : وما وجدنا له جفافا يمكن معه أن يكون منه سويق ولا رأيناه السنة كلها الا رطباً مثل بصل النرجس وبصل الزعفران ونحوه ، قال : ولم نر وسطه هذا الأخضر الذى ذكره ديوسقوريدس ولا وجدناه السنة كلها الا كالموز الأخضر • أقول : كلا ، بل الحق ما قاله ديوسقوريدس وانه حتى يقبل السبحق ويمكن أن يتخذ منه السويق (٢٧) وهذا رأينا عيانا وانه اذا جف لا فرق بينه وبين

(٢٦) الصحيح سحج المعى أو الأمعاء كما أوضحنا فى حاشية سابقة •

(٢٧) السبحق لم نعثر عليه فى المصادر المتوفرة بين أيدينا أما السويق ففى لسان العرب لابن منظور السويق معروف ، والصاد فيه لغة ، والجمع أسوقة وغيره • والسويق ما يتخذ من الحنطة والشعير ... »

الزنجبيل في المنظر، سوى أن القلقاس أكبر وتجد في طعمه حدة ولدعا وأقول عن حدس صناعي مبدؤ المشاهدة والسماع ان القلقاس زنجبيل مصرى أكسبته الأرض رطوبة فقلت حرارته وحدته كما أن الزنجبيل الزنجي والهندي أقوى وأحد من اليمنى ، وأهل اليمن يطبخون به كما يطبخ المصريون القلقاس لكن لا يستكثر منه جدا * ولقد سألت جماعة من التجار وأرباب المعرفة عن منبته باليمن وشكله فكلهم زعم أنه كالقلقاس ، غير أن القلقاس أكبر وكذلك ورقه أكبر من ورق الزنجبيل وقد شاهدته اذا يبس لا فرق بينه وبين الزنجبيل في الصورة مع حدة ، ولدع يسير * وقال له آخر ان نبات الزنجبيل يشبه نبات البصل ، مع أن القلقاس يكون في تلك البلاد وكأنه بستانى ، وقال على بن رضوان : القلقاس أسرع الأغذية استحالة الى السوداء ، وقال غيره من أطباء مصر ان القلقاس يزيد في الباءة * وفي كل نظر لا يليق بهذا الكتاب *

ومن ذلك الموز وهو كثير باليمن والهند ورأيت بالبحر وبدمشق مجلوبا ، وكونه من فراخ تظهر من أصل شجرته كما تظهر الفسلان (٢٨) من النخلة ، وتسمى المثمرة الأم فاذا أخذت ثمرتها قطعت هي أيضا وخلفها أكبر نباتها وترتفع قامتته الى قامتين وكأنها نخلة لطيفة ، وزعموا أن شجر الموز في الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل تجعل النواة في جوف القلقاسة وتغرس ، وهذا القول وان كان ساذجا من دليل يشهد له فالحسن يسوغه * وذلك أنه تجد لشجرته سعفا كسعف

(٢٨) الفسلان جمع الجمع لفسيلة ، أما الجمع فهو فسلل وفسيل ، والفسيلة هي الصغيرة من النخل فيما يقول ابن منظور *

النخل سواء ، الا أنك ينبغي أن تتخيل الخوص اتصل بعضه ببعض ، حتى صار كأنه ثوب حرير أخضر قد نشر أوراقه خضرا ترف ريا وطراة ، وكأن الرطوبة اكتسبها من القلقاس والشكل اكتسبه من النخل ، وأنت تعلم أن تشقق سعف النخل الى الخوص انما كان من قبل اليبس الغالب على مزاج النخل* ولكثرة رطوبة الموز بقى سعفه متصل الخوص ولم يتشقق ، فعلى هذا يكون القلقاس له بمنزلة المادة والنخل بمنزلة الصورة* وأنت اذا تأملت خشب الموز وورقه بعد يبسه ألقيت فيه تلك الشظايا والخيوط التي تجدها في جذع النخل وسعفه ، الا أنك تجدها مشوبة برطوبة قد ألحمت بينها وملأت فرجها وان كان القلقاس لا ينفك من ذلك أيضا ويتبينه آكله مقلوا* وأما الثمر فانك تراه أعذاقا كأعذاق النخل قد تحمل شجرته خمسمائة موزة فصاعدا ، ويكون في منتهى العذق موزة تسمى الأم ليس فيها لحم ولا تؤكل ، واذا شققت وجدت مؤلفة من قشور كالبصل كل قشرين منها متقابلان يحتوى كل واحد منهما على نصفها طولا وتحت كل قشر عند القاعدة زهر أبيض بقدر الفستق أو كزهر النارنج (٢٩) عدده احدى عشرة في صفين لا ينقص عن هذا العدد ولا يزيد الا واحدا نادرا ، فهذا القشر بمنزلة كبرى الطلع (٣٠) ، والزهر بمنزلة الطلع نفسه وتنشق هذه القشور من تلقاء أنفسها

(٢٩) النارنج بفتح الراء (وينطقها العامة بكسر الراء ، وأحيانا يبدلون النون الفا بمدودة) جعل له معجم الشهابى مقابلا انجليزيا Seville orange او Sour orange او bitter orange ، ثماره لا تؤكل مباشرة في مصر وانما تملح وتخلل ويسمى في الشام أبو صفير ، وفي مصر يطعمون به بعض أفرع شجر البرتقال أو الليمون فتنتج الشجرة ليمونا وتنتج بعض فروعها نارنج ، وكذلك شجر البرتقال*
(٣٠) كبرى بضم الكاف أو فتحها أو كسرهما وهو قنابة تحيط ببعض أشكال الأزهار تكافور الطلعة في النخل spathe ، وتطلق المصانير العربية على الطلع أحيانا كلمات مثل العذاق (بكسر العين) والكباسة (بكسر الكاف) والقنو (بكسر القاف) ، ومفرد الطلع : الطلعة ، والمقصود هنا انه يحيط به قنابة تسمى الكافور أو الكفرى *

على التدريج الأعلى فالأعلى ؛ فيظهر ذلك الزهر أبيض بمنزلة البلح وفيه رطوبة حلوة فيتساقط وتعتد عنه الموزة صغيرة فاذا أخذت في النمو قليلا انشق قشر آخر على الرسم ولا يزال كذلك حتى ينتهي العذق ، وتجد قشر الموزة كقشر الرطوبة ، الا أنه غليظ جدا بما اكتسبه من مادة القلقاس ، ولحمها حلو فيه تفاهة كأنه رطب مع خبز فالحلاوة له من الرطب والتفاهة من القلقاس . وأما شكلها ففي شكل الرطوبة ، الا أنها بقدر الخيارية الكبيرة تميل الى الصفرة والبياض فالصفرة من الرطب والبياض من القلقاس ، وحين ما يقطع يكون شديد الخضرة جدا لا يصلح للأكل فاذا دفن أياما اصفر وصلح للأكل ، ثم انك تجده شحمة واحدة ليس فيها نوى ولا ما يرمى سوى القشر فقط بل تراه كأنه قطعة خبيص (٣١) ناعم المضغ يسترط (٣٢) بسهولة ، واذا أنت تأملت في ضياء ، ألفيت في وسطه حبا كثيرا أصغر من الخردل يضرب الى السواد والشقرة شبيه بحب التين ، لكنه في غاية اللين فهذا كأنه رسم نوى الرطب ، الا أنه لزيادة رطوبته لان وتفرق واختلط باللحم وانساغ معه في الاكل . وله رائحة عطرة لا بأس بها فيها خمرة ما والجشأ العارض لأكله بعد أخذه في الهضم طيب الرائحة وهو حار رطب ورطوبته أزيد من حرارته وكأنه حار في الأول رطب في

(٣١) الخبيص أو الخبيصة بفتح الخاء والمقصود كل شيء كالمربي ، أي ثمارا طبخت بالسكر وقليل من الماء فاختلفت أجزاءها وماعت قليلا .

(٣٢) سرت (بفتح السين وكسر الراء) الطعام أو الشيء سرتا وسرطانا أي بلعه واسترطه وأزدرده ابتلعه كما في لسان العرب ، ومن الواضح أن اللفظ حرف في العامية فأصبح زلط أو ظلط (بفتح الزاي أو الظاء) ورجل زلاط أي كثير الأكل وبالفصحى سراط ويبدو أن التحريف العامي كان له هدف وهو عدم الخلط بين فعل سرت بمعنى ابتلع وفعل آخر قريب مخرج الحروف بمعنى أخرج ريحا .

الثانية يزيد في المياه ويدرب البول ويحدث تفجأ (٣٣)، ولا يبعد في طبعه هذا عن الرطب الا بكثرة رطوبته التي اكتسبها من القلقاس . فهذا ان كان من تركيب الصناعة فقد صدق الخبر الخبر . وان كان من تركيب الطبيعة فان لها أيضا تركيبات عجيبة متقنة من أصناف الحيوان والنبات فتكون الموز من جملتها . وقال أبو حنيفة : الموز معادته عمان وتنبت الموزة نبات البردية لها عنفرة غليظة وورقة عريضة نحو ثلاث أذرع في ذراعين ليست بمنخرطة على نبات السعف لكن شبه المربعة . وترتفع الموزة قائمة باسطة ولا تزال فراخها تنبت حولها واحدة أصغر من الأخرى ، فاذا أجرت وذلك ادراك موزها ، قطعت الأم حينئذ من أصلها ، وتؤخذ قنوها (٣٤) ويطلع أكبر فراخها فيصير هو الأم وتبقى البواقي فراخا لها ولا تزال على هذا أبد الدهر . ولذلك قال أشعب (٣٥) لابنه فيما يروى عنه الأصمعي (٣٦) : يا بني لم لا تكون مثلي ؟ فقال أنا مثل الموز لا تصلح حتى تموت أمها . ومن نبات الموز الى اثمارها شهران وبين اطلاعها (٣٧) الى اجرائها أربعون يوما . والموز موجود في

(٣٣) الصحيح غالبا نفجا (بالنون) بمعنى (اننفاخا) ، راجع مادة (نفج) في لسان العرب .

(٣٤) القنو جعله الخطيب في معجمه مرادفا للكباساة والطلع .

(٣٥) هو أشعب بن جببر الطماع أو الطامع . ويقال له ابن حميدة . وهو من

ظرفاء المدينة وكان مولى لعبدان بن الزبير . قدم بغداد أيام المنصور . انظر . هوات الوفيات ج ١ . تاريخ بغداد .

(٣٦) هو عبد الملك بن قريب (بضم القاف وفتح الراء) بن علي بن أسمع الباهلي ، يعرف بابي سعيد الأصمعي ولد ومات بالبصرة . كان كثير التطواف بالبوادى ، راوية شعر مشهور . من كتبه : (الأضداد) و (خلق الانسان) و (الفرق) أي الفرق بين أسماء الأعضاء من الانسان والحيوان ، و (الخيل) ، و (النبات والشجر) توفي

٢١٦ هـ / ٨٣١ م . راجع وفيات الأعيان لابن خلكان

(٣٧) اطلاعها : أي ظهور الطلع بها .

أوطائه السنة كلها ويكون في القنو من أقنائها ما بين ثلاثين موزة الى خمسمائة موزة * ورأيت عند بعض تجار الهند حصرا حسنة لطيفة موشاة ذات وجهين ألوانها أحسن الألوان وأصبغها زهر خالصة كأنها ألوان الحرير عرض الحصر منها نحو ذراعين ونصف وهو أسلة (٣٨) واحدة ليس فيه وصل فجعلت أعجب من طول الأسل الذي يسمى بمصر السمار ، فذكر لي أنه ليس به وإنما هو متخذ من ورق الموز الهندي بأن يؤخذ العسيب (٣٩) فيشقق ويجفف ثم يصبغ وينسج منه هذه الحصر * ويباع الحصر منها في المعبر بدينارين وفيها ما يباع بدرهمين وأرانى من كلا الصنفين *

وأما الحمضات فيوجد بأرض مصر منها أصناف كثيرة لم أرها بالعراق ، من ذلك أترج (٤٠) كبار يعز وجود مثله ببغداد ، ومن ذلك أترج حلو ليس فيه حماض ، ومن ذلك الليمون المركب وهو أصناف أيضا ويوجد فيه ما هو بقدر البطيخة ، ومن ذلك الليمون المختم وهو أحمر شديد الحمرة أقنى حمرة من النارنج شديد الاستدارة مفلطح من رأسه وأسفله مفضوخ فيها بختمين *

(٣٨) الأسل ويسمى أيضا الغرز ومن أصنافه المغضور (بتسكين الضاد وفتح الواو) وهو السمار في مصر ، من الفصيلة الأسلية وله أغصان كثيرة دقاق بلا أوراق * سوقه خضراء ذات أطراف حادة غير متفرعة ولا خشب فيها * ينبت في الماء أو الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والغرابيل * وأنواع الأسل كثيرة وصفاتها متباينة لكننا اقتصرنا على النوع المصرى لأنه المقصود * معجم يوسف خياط : المصطلحات العلمية والفنية عربى - انجليزى - فرنسى / مادة أسل *

(٣٩) الجمع عسب بضم العين والميم ، أصل الأوراق * (٤٠) أترج ، وترنج (بضم التاء والراء) ويسمى أيضا كباد (بضم الكاف وفتح الباء وتشديدها) وملك (بضم الميم وتشديد التاء) ، لكن الكلمة الشائعة في مصر هي أترج * ثمره كبير أصفر لا يؤكل *

ومن ذلك ليمون البلسم وهو في قدر الابهام وكالبیضة
المطلولة (٤١) ، وفيه ما هو مخروط صحيح يبتدىء من
قاعدة وينتهي الى نقطة ، وأما لونه وريحه وشحمه وحماضه
فلا يغادر من الأترج شيئا .

وقد يوجد أترج في جوفه اترج بقشر أصفر أيضا ،
وخبرني صادق أنه وجد في جوف أترجة سبع أترجات صفار .
كل واحدة يحيط بها قشر تام والذي رأيته أنا أترجة في
جوفها أترجة ليست تامة ، وقد رأيت منه شيئا بالغور وهذا
الأترج المداخل انما يكون في ذى الحماض . ثم ان هذه
الأنواع يركب بعضها على بعض فيتولد منها أصناف كثيرة
جدا .

ومن ذلك صنف من التفاح يوجد بالاسكندرية ببستان
واحد يسمى بستان القطعة وهو صفار جدا قاني الحمرة ،
وأما رائحته فتفوق الوصف وتعلو على المسك وهو قليل جدا .
وأما القرط (٤٢) فيسمى بالعراق الرطبة وبالشام
الفضة وبالفارسية أسفست .

وأما النخل فكثير لكن اذا قيس ثمرته بثمره نخل العراق
وجدت كأنها قد طبخت طبخة ، خرج بها معظم حلاوتها
وبقيت ناقصة القوة ، ومما يسميه أهل العراق القسب
يسميه أهل مصر التمر ، وأما التمر بالعراق فيسمى
العجوة وقلما تجد عندهم ما يشابه تمر العراق الا نادرا
ويكون ذلك نخيلا معدودة تهدي تحفة .

(٤١) لعله يقصد البيضة المسلوقة التي تم تقشيرها ثم ضغط عليها ، وفي لسان
العرب مادة (ط ل ل) « المطلولة جلدة مودونة بلبن محض ياكلونها » وقد استنتجنا
المعنى .

(٤٢) القرط بضم القاف البرسيم ، والقرط بكسر القاف الكراث ، وبمراجعة هذه
المادة في معجم يوسف خياط يصعب علينا معرفة ما يقصده البغدادي .

وأما الماش (٤٣) وهو الميج ، فلا يزرع بمصر أصلا وإنما يوجد عند العطارين مجلوبا من الشام ويباع بالأوقى للمرضى . وأما الذرة والدخن فلا يعرفان بمصر اللهم الا بالصعيد الأعلى وخاصة الدخن .

ومما تختص به مصر الأفيون وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيرا ما يغشيه جناته وربما غشوه بالعدرة (٤٤) وعلامة الخالص منه أن يذوب في الشمس ويقد في السراج بلا ظلمة ، وإذا طفى تكون رائحته قوية والمغشوش يسوس سريعا . وأرسطو ينهى عن خلطه بدواء العين والأذن لأنه يعمى ويصم .

ومن ذلك الاقاقيا ، وهو عصارة ورق شجر القرظ (٤٥) وثمره يستخرج ماؤه بالدق والعصر ويجعل في أوان مـُرَحْرحة تلقاء الشمس حتى يغلظ ثم يقرص . هذا هو الخالص الخاص وأما العام الذي يجلب الى البلاد ، فانه يؤخذ القرظ فيطحن ويعجن بماء الصمغ ثم يقبض ويختم ويجفف ، وشجرتة هي السنط وتسمى الشوكة المصرية وورقها هو القرظ بالحقيقة ويدبغ به الجلود ، وعصارة القرظ التي يتخذ منها الاقاقيا تسمى رب القرظ ونساء مصر يشربن عصارتها ونقيعه للاسهال .

(٤٣) ماش : ورد في معجم الشهابي تحت المسمى العلمي *Vicia Nilotica* واسماء أيضا *Phascolus aureus* ولا بد أن الماش الذي أشار اليه البغدادي غير الماش الذي أشارت اليه المعاجم العلمية ، لأن ماش البغدادي نبات طبي ، وماش المعاجم نبات قرني يؤكل وهو قاصوليا أو لوبييا ونبات البغدادي يباع بالأوقية ونبات المعاجم لا يباع بهذا الميزان الدقيق ، وماش البغدادي لا يزرع في مصر وإنما يجلب من الشام وماش المعاجم منتشرة زراعته في مصر .

(٤٤) العذرة نبات الكرم أو العنب ، وربما كان هو المقصود . معجم يوسف خياط/مادة

(عذرة) .

(٤٥) هو شجر السنط المعروف .

والسنط شجر عظام جدا له شوك كثير حديد صلب
أبيض وله ثمر يسمى خروب القرظ مدور مسطوح مشاكل
لحب الترمس ، الا أنه متصل كقرون اللوبيا وفي داخله حب
صغار ، واذا اتخذ الاقاقيا من القرظ قبل كمال نضجه كان
أكثر قبضا وأقوى على حبس الطبيعة ، واذا اتخذ مما استحکم
نضجه لم يقو على حبس البطن وعلامته أن يكون شديد السواد
مشرق اللون ، وقال الدينوري : القرظ شجر عظام كشجر
الجوز وخشبه صلب كالحديد واذا قدم اسود كالآبنوس ،
وورقه يشبه ورق التفاح ، وله حبة مثل قرن اللوبيا داخلها
حب يوضع في الموازين ويدبغ بورقه وثمره ومنايته القيعان
والجبال وحبة القرظ أصغر من علف الطلح ، واذا رعته الابل
احمرت أفواهها وأدبارها حتى أبعارها فتحسبها عصفا قد
جمع وتسمن عليه . وما كان من القرظ بأرض مصر فهو
السنط وهو ذكي الوقود قليل الرماد ، وله برمة صفراء ليس
لها رائحة زكية كبرم العراق .

ومن ذلك الفصوص وهو قثاء صغار لا يكبر ولا يعدو
أطوله الفتر وأكثره في طول الاصبع ، وهو أنعم من القثاء
وأحلى ولا شك في أنه صنف منه وكأنه الضفائيس ، أما
القتد فهو الخيار .

ويوجد بمصر بطيخ يسمى العبدلي والعبدلاوى ، قيل
انه نسب الى عبد الله بن طاهر (٤٦) والى مصر عن المأمون .
وأما المزارعون فيسمونه البطيخ الدميرى منسوباً الى

(٤٦) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق (الخزاعي بالولام) من
أشهر الولاة في العصر العباسي . أصله من خراسان . تولى امرة مصر سنة ٢١١ هـ ولم
يمكث فيها غير سنة ثم نقل الى دینور ثم تولى امرة خراسان . اثنى عليه المؤرخون لعلمه
ومعرفته وكرمه . تولى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - أحداث
٢٣٠ هـ .

دميرة (٤٧) قرية بمصر وله أعناق ملتوية وقشره خفيف وطعمه مسخ قلما يوجد فيه حلو ويندر فيه ما وزنه ثلاثون رطلا وأكثر . والغالب عليه ما بين رطل الى عشرة أرطال ، وأهل مصر يستطيبونه على البطيخ المولد المسمى عندهم بالخراساني والصيني ويزعمون أنه نافع ، ويأكلونه بالسكر وطعمه أشبه شيء بالصنف المسمى بالعراق الشلنق ؛ لكنه ألد منه وأنعم وشكله شكل يقطين العراق ، الا أن لونه حسن الصفرة جدا وفي ملمسه حراشة وتخيش ، وصغاره قبل أن تبلغ تكون كلون اليقطين وشكله وكطعم القثاء ، لها بطون وأعناق وتباع بالفقوص وتسمى العجور ، وأخبرني مزارعه أن العادة جارية بأن ينقى حقله كل يوم فما يرى مزارعه أن يقطعه صغيرا أخضر قطعه وباعه بالعجور ، وما يرى أنه يتركه حتى يكبر ويبلغ ويصفر كان منه البطيخ العبدلي وقلما تجد في بطيخ مصر ما هو صادق الحلاوة ؛ لكنه لا يوجد فيه مدود ولا فاسد بل الغالب عليه التفاهة المائية . وجميع أصناف البطيخ بها يباع بالميزان سوى البطيخ الأخضر . وأما البطيخ الأخضر ، فإنه يسمى بالغرب الدلاع وبالشام البطيخ الرنشي وبالعراق البطيخ الرقي ويسمى أيضا الفلسطيني والهندي . وأما اليقطين الذي يقصره الجمهور على الدباء ، فيكون بمصر مستطيلا وفي شكل القثاء ويبلغ في طوله الى ذراعين وفي قصره الى شبر . وأما الباقل الأخضر المسمى عندهم بالفول ، فإنه يتواصل نحو ستة أشهر ، وكذلك الورد والياسمين يدوم جميع السنة ولا تزال شجرته مزهرة ومنه أبيض وأصفر والأبيض أكثر وأعطر ومنه يتخذ دهن الزنبق بدمياط .

(٤٧) قرية دميرة مركز طلخا ، وكان اسمها الديميرتين . القاموس الجغرافي للبلاد

المصرية . ق ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

خاصة ، وكذلك الليمون وانما يقل ويكثر فقط • والبنفسج
بمصر عطر جدا لكن لا يحسنون اتخاذ دهنه ولا معجونه •
والسفرجل بمصر رديء جدا صغير عفص غال • وأما تفاحها ،
فلا بأس به وان كان رديا ، وأما رمانها ففي غاية الجودة ،
الا أنه ليس بصادق الحلاوة •

وأما القراسيا ، فلا يوجد بمصر بل بالشام وبلاد الروم
وغيرهما • وانما بمصر صنف من الأجاص صفار حامض
يسمونه القراسيا ومثل هذا الصنف بدمشق يسمونه خوخ
الدلب ؛ لأن الأجاص بالشام يسمى خوخا والخوخ دراقنا
والكمثرى أجاصا •

ومما يكثر بمصر شجر خيار شنبز وهو شجر عظام شبيه
بشجر الخروب الشامي وزهره كبير أصفر ناضر ذو رواء
وبهجة فاذا عقد تدلى ثمره كالمقارع الخضر • وبها شجر
اللوز • والسدر بها كثير وثمره النبق حلو جدا ، والتيل
يكثر بها ولكنه دون الهندي •

الفصل الثالث

فيما تختص به من الحيوان

من ذلك حضانة الفراريج (١) بالزبل، فانه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضا، وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك. ويسمى الموضع معمل الفروج. وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الترقيد. وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساسي (٢) وهو مشاقة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين ثم يرمص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعله وأسفله؛ حتى لا يخرج منه بخار وينبغي أن تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكى صدر الدجاجة. ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساسي طول

(١) الكتاكيت.

(٢) الساس أو الساسي عشب جاف وهو المقصود هنا. وفي لسان العرب لابن منظور الدوسى والساس حشيشة وقيل شجر لا أفنان له.

الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو أربع أصابع * ويكون هذا الحوض لوحا واحدا تبسطه على أرض معتدلة * هذا الحوض يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قبالة على الطرف الآخر تركيبا محكما ، وأخذت وصولهما بالطين أخذا متفقا وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه * وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ، ثم يفرش البيت بقفة تبين ويمهد ويفرش فوقه ضب أو ديس ، يعنى حصيرا برديا على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكم لتتواصل الحرارة فيه * ومقدار ما يسع هذا البيت ، المفروض ألفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد وان ضاقت الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساسى والشباك أيضا بساسى وفوقه زبل حتى لا يبقى فى البيت منفس للبخار * وتلقى فى الطاجنين من زبل البقر اليابس (٣) قفتين وذلك ثلاث ويبات (٤) وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريشما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك ، وتعتبر حرارته * وهذا الفعل يسمى الذواق فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليببات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله * وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقد اياها بعينها وهذا يسمى السماع الأول ، فاذا صار الزبل رمادا أزلته وتركته بلا نار الى نصف

(٣) استخدم البغدادى مصطلحا غير مصرى ، فالصريون لا يسمونه زبل البقر وانما جلة (بكسر الجيم وتشديد اللام وكسرها) وهو روث البقر أو الجاموس يابسا ، ويستخدم كوقود .

(٤) والمفرد ويبة ، مكيال معروف ، ولا زال يرد فى كلام الفلاحين للدلالة على الكثرة ، كتولهم هذا الشيء بالويبة ، أى كثير .

النهار ان كان ترقيده بكرة • وان كان ترقيده من أول الليل
 حرسته الى أن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ثم تخلى
 الطاجنين من النار الى بكرة ، ثم تجعل في الطاجن الذي على
 باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على
 صدر البيت قدحين ونصفا ومد الزبل بمرود غليظ واطرح
 في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت
 بعد تفقده فأرخ الستر ، وإياك وأن تغفل عنه لئلا يخرج
 البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل • وإذا كان وقت العشاء
 وصار الزبل رمادا ونزل الدفء الى البيض ، أسفل البيت ،
 فغير الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول ، وأنت كل وقت
 تلمس البيض وتدوقه بعينك ، فان وجدت حرارته زائدة عن
 الاعتدال تلذع العين ، فاجعل مكان ثلاثة الأكياس لطاجن
 الباب كيلين وربعا ، وفي طاجن الصدر كيلين فقط ولا تزال
 تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع
 الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخصوص بمشيئة الله
 وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان ، ثم تدخل البيت بالسراج
 وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ،
 فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ ، والتى تراها شبه شراب
 أصفر فى زجاج لا عكر فيه فهى لاح بلا بذر وتسمى الأرملة
 فأخرجها فلا منفعة فيها ، ثم عدل البيض فى البيت بعد تنقيته
 وأخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح • ثم تصبح بعد
 التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل
 حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم
 يبق من الزبل شئ ، فحينئذ يكمل الحيوان ويشعرن ويتفتح ،
 فاقطع اذ النار عنه فان وجدته زائد الحرارة يحرق العين
 فافتح الطاقة التى على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه
 على عينك فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك

وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي فى الصدر الى جهة الباب والبيض الذى فى جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمى البارد الذى كان فى جهة الباب ويستريح الحار الذى فى الصدر : يشم الهواء فيصير فى طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء ، وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل الى تمام تسعة عشر أيضا فان الحيوان ينطق فى البيض بقدره الله تعالى وفى يوم العشرين يطرح بعضه ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح وعند تمام اثنين وعشرين يوما يخرج جميعه ، وأحمد الأوقات لعمله أمشير وبرمهاث وبرمودة ، وذلك فى شباط وآذار ونيسان ، لأن البيض فى هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين، وينبغي أن يكون البيض طريا وفى هذه الأشهر يكثر البيض أيضا (٥) .

ومن ذلك الحمير ، والحمير بمصر فارهة جدا ، وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال النفيسة لعلها تسبقها ، وهى مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هو غال بحيث اذ ركب بسرجه اختلط مع البغلات ، يركبه رؤساء اليهود والنصارى ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا الى أربعين .

وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور ، ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى (البقر الخيسية) وهى ذوات قرون كأنها القسي غزيرات اللبن .

(٥) اشار الرحالة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى هذه الطريقة نفسها بعد ذلك بخمسة قرون تقريبا ، وقد اثار عجبه ، وقد ترجمت هذه الرحلة ونشرت فى سلسلة الألف كتاب الثانى بعنوان رحلة جوزيف بتس الى مصر والحجاز .

وأما خيلها فعتاق سابقة ومنها ما يبلغ ثمنه ألف دينار إلى أربعة آلاف ، وهم ينزون الخيل على الحمير والحمير على الخيل فتأتى البغلة وأما أتان ؛ ولكن هذه البغال لا تكون عظيمة الخلق كالتى أمهاتها مهورة ؛ لأن الأم هى التى تعطى المادة •

ومن ذلك النماسيح • والتماسيح كثيرة فى النيل وخاصة فى الصعيد الأعلى وفى الجنادل فانها تكون فى الماء وبين صخور الجنادل كالودودة كثرة وتكون كبارا أو صغارا ، وتنتهى فى الكبر إلى نيف وعشرين ذراعا طولا ، وتوجد فى سطح جسده مما يلي بطنه سلعة كالبيضة تحتوى على رطوبة دموية وهى كنافجة المسك فى الصورة والطيب ، وخبرنى الثقة أنه يندر فيها ما يكون فى غلو المسك لا ينقص عنه شيئا والتمساح يبيض بيضا شبيها ببيض الدجاج ، ورأيت فى كتاب منسوب إلى أرسطو ما هذه صورته ، قال : التمساح كبده تهيج الجماع وكليتاه وشحمه فى ذلك أبلغ ولا يعمل فى جلده الحديد ومن فقار رقبتة إلى ذنبه عظم واحد ولهذا إذا انقلب على ظهره لم يقدر أن يرجع ، قال : ويبيض بيضا طويلا كالأوز ويدفنه فى الرمل ، فإذا أخرج كان كالحراذين فى جسمها وخلقتها ثم يعظم حتى يكون عشر أذرع ويبيض ستين بيضة ؛ لأن خلقته تجرى على ستين سنا وستين عرقا وإذا سفد (٦) مئى ستين مرة ، وقد يعيش ستين سنة •

ومن ذلك الدلفين ، ويوجد فى النيل وخاصة قرب تنيس (٧) ودمياط •

(٦) قال ابن منظور • السفاد تزو الذكر على الأنثى • وقال الأصمعى يقال للحيرانات كلها سفد (بفتح السين والفاء أو كسر الفاء) انشاء •

(٧) من البلاد المدرسة بين الفرما ودمياط ، وكانت جزيرة ببجيرة المنزلة • القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد بهزى / ق ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ •

ومن ذلك الاسقنقور (٨) ويكون بالصعيد وبأسوان كثيرا ويكون من نتاج التمساح فى البر ، وهو صنف من الورل بل هو ورل الا أنه قصير الذنب ، والورل والتمساح والحردون والاسقنقور وسميكة صيدا لها كلها شكل واحد ، وانما تختلف بالصغر والكبر والتمساح أعظمها وسميكة صيدا أصغرها تكون بقدر الاصبع وتصلح لما يصلح له الاسقنقور من تسخين الأعضاء والانعاظ ، وكان التمساح ورل بحرى والورل تمساح برى والجميع يبيض بيضا . السقنقور يكون بشطوط النيل ومعيشتته فى البحر السمك الصغار وفى البر القطا ونحوه . ويستترط غذاءه استراطا (٩) ويوجد لذكورته خصيان كخصى الديكة وفى مقدارهما ومواضعهما ، واثاته تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها فى الرمل فيكمل كونها بحرارة الشمس فعلى هذا انما هو نوع برأسه وقال ديوسقوريدس انه يكون بنواحى القلزم وبمواضع من بلاد الهند وبلاد الحبشة ، ويفارق الورل بمآواه فان الورل جبلى والسقنقور برى مائى ؛ لأنه يدخل فى ماء النيل . ثم ان ظهر الورل خشن صلب وظهر السقنقور لين ناعم ولون الورل أصفر أغبر ولون السقنقور مديج بصفرة وسواد ، والمختار من الاسقنقور انما هو الذكر دون الأنثى ويصاد فى الربيع ، لأنه وقت هيجانه للسفاد (١٠) ، فاذا أخذ ذبح فى مكانه وقطعت أطرافه ولا يستقصى قطع ذنبه ، ويشق جوفه ويخرج حشوه الا كشيتته وكلاه ثم يحشى ملحاً ويخاط ويعلق فى الظل حتى يجف ويرفع ويسقى

(٨) السقنقور من رتبة العظاء قصيرات اللسنة . انظر معجم يوسف خياط الانذ نكره .

(٩) أى يبتلعه أو يذرده . ابن منظور .

(١٠) أى التزاوج - انظر حاشية سابقة .

من كلاه وممتنه وشحمه وسرته من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بماء العسل أو بمطبوخ أو بصفرة بيض نيمرشت (١١) وحده أو مع بزر جرجير وخصى ديوك مجفف مدقوق ، وقد يفعل ملحه ذلك اذا خلط بالأدوية البائية ، وقد يركب مع غيره من الأدوية الا أن استعماله مفردا أقوى له *

ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد بأسافل الأرض وخاصة ببحر دمياط ، وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس ، يتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها ، وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن وفي صوته سهولة تشبه صهيل الفرس بل البغل ، وهو عظيم الهيئة ، هريت الأشداق ، حديد الأنياب ، عريض الكلكل ، منتفخ الجوف ، قصير الأرجل ، شديد الوثب ، قوى الدفع ، مهيب مخوف الغائلة ، وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة أنها خنزير كبير وأن أعضائها الباطنة والظاهرة ، لا تغادر من صورة الخنزير شيئاً الا في عظم الخلقة ، ورأيت في كتاب ينطواليس في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته ، قال : خنزيرة الماء تكون في بحر مصر وهي تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه خف الجمل * قال : وشحم ممتنها اذا أذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تحوز المقدار * وكانت واحدة ببحر دمياط قد ضربت على المراكب تفرقها وصار المسافر في تلك الجهة مغرراً ، وضربت أخرى بجهة أخرى على الجواميس والبقر وبنى آدم تقتلهم وتفسد الحرث والنسل وأعمل الناس في قتلها كل حيلة من نصب الجبائل الوثيقة

(١١) لم تهتد الى تعريف لهذا الطائر وربما كان هناك خطأ في النسخ *

وحشد الرجال بأصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيئاً فاستدعى بنصر من المريس - صنف من السودان - زعموا أنهم يحسنون صيدها وأنها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق فتوجهوا نحوها فقتلوها في أقرب وقت وبأهون سعى ، وأتوا بها الى القاهرة فشاهدتها فوجدت جلدها أسود أجرد ثخيناً وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات معتدلات ، وهى فى غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات وكذلك رقبتها ورأسها وفى مقدم فمها اثنا عشر ناباً ستة من فوق وستة من أسفل المتطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسط أنقص بقليل ، وبعد الأنياب أربعة صفوف من الأسنان على خطوط مستقيمة فى طول الفم فى كل صف عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان فى الأعلى وصفان فى الأسفل على مقابلتهما . وإذا فغر فوها وسع شاة كبيرة وذنبها فى طول نصف ذراع زائد أصله غليظ وطره كالاصبع ، أجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل وأرجلها قصار طولها نحو ذراع وثلاث ولها شبه بخف البعير ، الا أنه مشقوق الأطراف بأربعة أقسام وأرجلها فى غاية الغلظ وجملة جثتها كأنها مركب مكبوب لعظم منظرها . وبالجمله ، هى أطول وأغلظ من الفيل ، الا أن أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير ولكن فى غلظها او أغلظ منها .

ومن ذلك السمكة المعروفة بالرعاد ، لأنه من أمسكها وهى حية ارتعد رعدة لا يمكنه معها أن يتماسك ، وهى رعدة بقوة وخدر شديد وتنمل فى الأعضاء وثقل بحيث لا يقدر أن يملك نفسه ولا أن يمسك بيده شيئاً أصلاً ويتراقى الخدر الى عضده وكتفه والى جنبه بأسره حينما يلمسها أيسر لمس فى أسرع وقت . وخبرنى صيادها أنها اذا وقعت فى الشبكة ، اعترى الصياد ذلك اذا بقى بينها وبينه مقدار شبر أو أكثر

من غير أن يضع يده عليها وهي اذا ماتت بطلت هذه الخاصة منها . وهي من السمك الذي لا تفليس له ولحمه قليل الشوك كثير الدسم ولها جلد ثخين في ثخن الاصبع ينسلخ منها بسهولة ولا يمكن اكله . ويوجد فيها الصغير والكبير ما بين رطل الى عشرين رطلاً وذكر من يكثر السباحة بنواحيها أنها اذا مست بدن السابح خدر الموضع أين كان ساعة بحيث يكاد يسقط . وتكثر بأسافل الأرض وبالاكندرية .

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة ؛ لأنه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر الملح ولا يفى القول بنعتها لكثرة أصنافها واختلاف اشكالها والوانها ، ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء وهي سمكة كالحية سواء . طولها ما بين ذراع الى ثلاث أذرع .

ومنها السرب ، وهي سمكة تصاد من بحر الاسكندرية يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة ، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والأحداث المضحكة فيها مشهورة .

ومن ذلك الترسية - وتسمى لجاة - وهي سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير ، الا أن جفنتها - أعنى عظم ظهرها - كالترس له أفاريز خارجة عن جسمها نحو شبر ، ورأيتها بالاسكندرية يقطع لحمها ويباع كلحم البقر .

وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، وتخرج من جوفها نحو أربعمئة بيضة كبيض الدجاج سواء ، الا أنه لين القشر . واتخذت من بيضها عجة فلما جمد ، صار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيها بألوان اللحم ، ومن ذلك السرلينس ، وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالكيل .

الفصل الرابع

فى اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشئ لم أر ولم أسمع بمثله فى مثلها فأقتصر على أعجب ما شاهدته •

فمن ذلك الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها • وهى كثيرة العدد جدا وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة (١) وتمتد فى نحو مسافة يومين • وفى بوسير (٢) منها شئ كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس ، قد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، على يدى قراقوش (٣) وكان خصيا روميا سامى الهمة فكان يتولى

(١) المقصود هنا منف كما سيتضح فى أكثر من موضع •

(٢) أبو صير الملق واسمها القديم يعنى أبيدوس الشمالية تمييزا لها عن أبيدوس الجنوبية (العراة المدفونة) ، واسمها الرومى Busirus أى محل إقامة الإله أوزوريس ، وهى المقصودة هنا ، وهناك أيضا أبو صير وهى كورة من كور الجيزة وغيرها • القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ •

(٣) أمير نشأ فى خدمة صلاح الدين الأيوبي وناب عنه فى مصر • أشرف على بناء سور القاهرة وبناء قلعة الجبل ويعنى اسمه بالتركية العقاب - بضم العين وهو الطائر المعروف ، كان له أعداء كثيرون نسبوا إليه كثيرا من الأمور التى لا تصدر عن عاقل • النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن حلكان •

عمائر مصر وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطا
بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على المقطم ،
وهو أيضا الذى بنى القلعة وأنبط فيها البيرين الموجودتين
اليوم ، وهما أيضا من العجائب وينزل اليهما بدرج نحو
ثلثمائة درجة ، وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها
القناطر الموجودة اليوم بالجيزة ، وهذه القناطر من الأبنية
العجيبة أيضا ومن أعمال الجبارين وتكون نيفا وأربعين
قنطرة . وفى هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسمائة
تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء
فيروى الجيزة ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث
قناطر وانشقت ، ومع ذلك فلم يرو ما رجا أن يروى . وقد
بقى من هذه الأهرام المهدومة قلبها وحشوتها وهى ردم
وحجارة صغار لا تصلح للقناطر ؛ فلأجل ذلك تركت .

وأما الأهرام المتحدث عنها المشار إليها الموصوفة بالعظم ،
فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة
الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة زواياها متقايلة نحو الشرق
واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد وبهما أولع الشعراء
وشبهوهما بنهدين قد نهذا فى صدر الديار المصرية وهما
متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيض . وأما الثالث
فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر
المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن
الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينيك . فاذا قربت منه
وأفردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله ، وقد
سلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ؛
ولذلك صبرت على مر الزمان بل على مرها صبرا لزمان . فانك
إذا تبهرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول

الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وترجم عن سيرهم وأخبارهم ، وذلك أن وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها • ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع ، فان الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عندما تلقى السطح، ولنرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمئة ذراع(٤) طولاً فى مثلها عرضاً، وارتفاع عمودها أربعمئة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشر أذرع فى مثلها ، وأما الذى شاهدته من حالهما فان رامياً كان معنا رمى سهماً فى قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة • وخبرنا أن فى القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلاً منهم ورضخنا له بشيء (٥) فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا فى الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوا به ، وكانت سابقة كنت أمرته أنه اذا استوى على سطحه قاسه بعمامته ، فلما نزل ذرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان احدى عشرة ذراعاً بذراع اليد ، ورأيت بعض أرباب القياس قال : ارتفاع عمودها

(٤) الذراع مقياس تقريبى للأطوال يبلغ عند المصريين القدماء ٢٥٦ بوصة أو ٥٢٣٢ سنتيمتراً • أسماه على مبارك الذراع الانتيكى وهو قريب من الذراع البلدى •
(٥) دفعنا له بعض المال •

ثلثمائة ذراع ونحو سبع عشرة ذراعاً يحيط به أربعة سطوح مثلثات الأضلاع طول كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعاً * وأرى هذا القياس خطأ ، ولو جعل العمود أربعمائة ذراع ، لصح قياسه * وإن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى * وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلججه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلججه ويتوغله ، فإن ناساً كثيرين لهم غرام به وتخييل فيه فيوغلون فى أعماقه ولا بد أن ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه ، وأما السلوك فيه المطروق كثيراً فزلاقه تفضى الى أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هو المتخذ له فى اصل البناء وإنما هو منقوب نقباً صودف اتفاقاً ، وذكر أن المامون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا : حدثوا بعظيم ما شاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وأبوانها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طبقات * وروازنه نحو أعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء ، ولجته مرة أخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثى المسافة فأغمى على من هول المطلاع فرجعت برmq *

وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشر أذرع الى عشرين ذراعاً وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك ، والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الامكان أصبح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صفته ولا ما هو * وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه

وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف ، لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة • وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر عازيمون ، والآخر قبر هرميس ويزعمون أنهما نبيان عظيمان ، وأن (عازيمون) أقدم وأعظم (٦) •

(٦) فى الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى ج ١ (طبعة دار الكتب العلمية) ص ٤٩ عازيمون ، لكنها كتبت مرة أخرى فى ص ١٣٧ عادمون وكتبها الشهرستانى فى الملل والنحل عازيمون وكتبها البغدادي عازيمون ، أما هرميس فوردت فى الشهرستانى ص ٤٥ هرمس وكذلك عند ابن حزم الظاهرى ص ٥٠ ، ولأهمية ارتباط هذه العقائد بالأهرام ، يهمنى أيراد ما أورده ابن حزم والشهرستانى عن عقائد الصابئة رغم أن البغدادي وحده قد انفرد من دونهما بربط هذه العقائد بأهرام مصر • يقول الشهرستانى عن « حدم هرمس العظيم المصودة آثاره ، المرضية أقواله وأفعاله ، الذى يعد من الأنبياء الكبار ، ويقال هو الدريس الذى عليه السلام • وهو الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها ، وأثبت لها الشرف والويل ، والأوج والحضيض ، والمناظر بالمثلث والتسديس والتربيع ، والمقابلة والمقارنة ، والرجعة والاستقامة • وبين تعديل الكواكب وتقويمها • وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مدرهن عليها عند الجميع •

وللهند والعرب طريقة أخرى فى الأحكام أخذوها من خواص الكواكب ، لا من طبائعها • ورتبوها على الثوابت ، لا على السيارات • ويقال ان عازيمون وهرمس هما شيت ، وادريس عليهما السلام ، ونقلت الفلاسفة عن عازيمون أنه قال : المبادئ الأولى خمسة : البارئ تعالى ، والعقل ، والنفس ، والمكان ، والخلاء ، وبعدهما وجود المركبات • ولم ينقل هذا عن هرمس • ومن حكم هرمس :

قوله . أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعة ، المصمود بسنخه ، المرضى فى عاقبته ، المرجو فى عاقبته : تعظيم الله عز وجل ، وشكره على معرفته ، وبعد ذلك فللنামوس عليه حق الطاعة له ، والاعتراف بمنزلته ، وللسلطان عليه حق المناصحة والابقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد ، والدأب فى فتح باب السعادة ، ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود ، والتسارع اليهم بالبذل ، فاذا حكم هذه الأسس لم يبق عليه الا كف الأذى عن العامة ، وحسن المعاشرة ، وسهولة الخلق • • • »

فى الفصل لابن حزم الظاهرى •

« وقد يضاف الى جملة من قال أن مدبر العالم أكثر من واحد الصابئون ، وهم يقولون بقدم الأصلين على ما قدمنا من نحو قول المجوس ، الا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة ، والبروج الاثنى عشر ، ويصورونها فى هياكلهم ويقولون بقدمها ، ويقربون الذبائح ، والدخن ، ولهم صلوات خمس فى اليوم والليله تقترب من صلوات المسلمين ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون فى صلاتهم الكعبة والبیت الحرام • »

وأنه كان يحج إليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض، وقد وسعنا القول في المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليّه ، فإن هذا الكتاب مقصور على المشاهد *

وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف (٧) لما استقل بعد أبيه ، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثالثة الأثافي *

فأخرج اليه الحلبيّة والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلمهم بخرابه فخيّموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا

= ويعظمون مكة والكعبة ، ويحرمون الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، ويحرمون من القرائب ما يحرم على المسلمين ، وعلى نحو هذه الطريقة تفعل الهند بالبددة في تصويرها على أسماء الكواكب وتعظيمها ، وهو كان أصل الأوثان في العرب ، والدقاقرة في السودان ، حتى آل الأمر طول الزمان إلى عبادتهم إياها . وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر ، والغالب على أهل الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث ، وبدلوا شرائعه بما ذكرناه ، فبعث الله عز وجل إليهم إبراهيم خليله ﷺ بدين الإسلام الذي نحن عليه الآن ، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التي أتى بها محمد ﷺ ، من عند الله تعالى . فبين لهم كما نص في القرآن بطلان ما أحدثوه ، من تعظيم الكواكب وعبادتها وعبادة الأوثان ، فلقى منهم ما نصه الله في كتابه ، وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون بالحنفاء ، ومنهم اليوم بقايا « بحران » ، وهم قليل جدا .

للمصابئين شرائع يسندونها إلى « هرمس » ويقولون أنه « أدريس » ، وإلى قوم آخرين ، يذكرون أنهم أنبياء « كايرون » ويقولون أنه « نوح » عليه السلام ، و « إسفلانيوس » صاحب الهيكل الموصوف في « عاظميون » و « يوداسف » وغيرهم *
حصص ٥٠ - ٥١ ، وراجع أيضا ج ١ ، ج ١٣٦ - ١٣٧ .

(٧) هو عثمان بن يوسف (ويوسف هذا هو صلاح الدين الأيوبي المشهور) بن أيوب . كنيته . أبو الفتح من ملوك الدولة الأيوبية بمصر . وكان نائباً فيها عن أبيه . ولما توفي أبوه (السلطان صلاح الدين) بدمشق ، استقل هو بملك مصر سنة ٥٨٩ هـ وحاول انتزاع دمشق من يد أخيه الأفضل مرتين فلم ينجح ، ونجح في الثالثة ٥٩٢ هـ فقام عليها عمه العادل . يقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة : « استقامت الأمور في أيامه وعدل في الرعية وعف عن أموالها . ولد في القاهرة ومات بها سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م .

— النجوم الزاهرة لابن تغري بردي / حوادث ٥٩٥ وغيرها .

— الأعلام للزركلي .

عليهم النفقات ، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين ، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والامخال ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان ، فإذا سقط سمع له جلبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص فى الرمل فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الأسافين ، بعد ما ينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه ، فيتقطع قطعاً فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى فى ذيل الجبل وهى مسافة قريبة فلما طال ثاؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهنت عظامهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية ، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ومع ذلك فإن الرأى لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استؤصل فإذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شيء وإنما جانب قد كشط بعضه . وحينما شاهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين ، فقلت له : لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فأقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه .

وبازاء الأهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة ، وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لعل الفارس يدخلها برمحها ويتخللها يوماً أجمع ولا ينهاها لكثرتها وسعتها وبمدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام ، وأما مقاطع حجارة الصوان الأحمر فيقال أنها بالقلزم وبأسوان ، وعند هذه

الأهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلم ترى من ذلك شيئاً الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة (٨) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول .
ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى المقياس أن تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعاً ، وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسماً ، وسألني بعض الفضلاء : ما أعجب ما رأيت ؟ ، فقلت : تناسب وجه أبي الهول فان أعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فان أنف الطفل مثلاً مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهاً به ، وكذلك لو كان أنف الرجل للصبي لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الأعضاء فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار وهيئة ، بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة . والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله .

ومن ذلك الآثار التي بعين شمس وهي مدينة صغيرة يشاهد سورها محققاً بها مهدوماً ، ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعاً وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم ، وقد كان بعض هذه الأصنام قائماً

(٨) الغلوة مقياس لقياس الأهلوال بشكل تقريبي . وفي أمن منظور : « بينه وبين الأوراق غلوة » الغلوة قدر ردية بسهم .

على قواعد وبعضها قاعدا بنصيات عجيبة واتقانات محكمة
وباب المدينة موجود الى اليوم * وعلى معظم تلك الحجارة
وتصاوير الانسان وغيره من الحيوان ، كتابات كثيرة بالقلم
المجهول وقلمما يرى حجر غفلا من كتابة أو نقش أو صورة ،
وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون
وصفة المسلة أن قاعدة مربعة طولها عشر أذرع فى مثلها
عرضا فى نحوها سمكا . قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض
ثم أقيم عليها عمود مربع ، ينيف طولها على مائة ذراع يبتدىء
من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى الى نقطة ، وقد
لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها كالقمع وقد
تزنجر بالمطر وبطول المدة اخضر وسأل من خضرته على بسيط
المسلة ، والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى
المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل واخذ
النحاس من رأسها ، ثم ان حولها من المسال شيئا كثيرا لا يحصى
عددها مقاديرها على نصف تلك العظمى او ثلثها ، وقلمما تجد
فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها
على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها *

ورأيت بالاسكندرية مسلتين على سيف البحر فى وسط
العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين *

وأما البرابى بالصعيد ، فالحكاية من عظمها واتقان
صنعتها واحكام سورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش
والتصاوير والخطوط ، مع احكام البناء وجفاء الآلات
والأحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن
الاطالة فى الصفة *

ورأيت بالاسكندرية عمود السوارى وهو عمود أحمر
منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جدا شاهق

الطول ، لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع ، وتحتة قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام يفتقر الى قوة في العلم برفع الأثقال وتمهر في الهندسة العملية ، وخبرني بعض الثقات أنه قاس دوره فكان خمسا وسبعين شهرا بالشبر التام .

ثم اني رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربعمئة عمود مكسوة أنصافا وأثلاثا ، حجرها من جنس حجر عمود السواري على الثلث منه أو الربع ، وزعم أهل الاسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السواري ، وان بعض ولاية الاسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف ابن أيوب ، فرأى هدم هذه السواري وتكسيها وألقاها بشاطئ البحر زعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة ، أو أن يمنع مراكب العدو أن تستند اليه ، وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة .

ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف ، وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه (٩) .

(٩) احترقت هذه المكتبة اثناء ثورة الاسكندرانيين على يوليوس قيصر ، وقد نقلت البقية الباقية من كتبها الى مكتبة السياريوم الذي دمر باعتباره معبدا وثنيا في العصر المسيحي . راجع فتح العرب لمصر لالفريد بتلر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد .

وأما المنارة فحالها مشهور يغنى عن وصفها وذكر ذو العناية ، أن طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا .

وقرأت بخط بعض المحصلين أنه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلثى ذراع ، وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعا ، وطول القاعدة العليا سبع أذرع ونصف ذراع ، وقاس أيضا المنارة فوجدتها مائتى ذراع وثلثا وثلثين ذراعا وهى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة وهى مائة ذراع واحد وعشرون ذراعا ، والطبقة الثانية مربعة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع ، والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون ذراعا ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع .

ومن ذلك الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بالجزيرة وهى منف التى كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر ، واياها عنى بقوله تعالى عن موسى عليه السلام : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » ، وبقوله تعالى : « فخرج منها خائفا يترقب » ، لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجزيرة قريبة من المدينة تسمى دمو (١٠) وبها اليوم دير لليهود ، ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم أو نحوه وقد كانت عامرة فى زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن

(١٠) هى ما يعرف الآن باسم منيل شبيحة • على الشاطئ الغربى للمنيل مقابل طرا • انظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ١٩ - ٢٠ .

بختنصر فانه أخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة
وسبب خرابه اياها أن ملكها عصم منه اليهود ، حين التجأوا
الى مصر ، ولم يمكن منهم بختنصر فقصده بختنصر وأباد
دياره * ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستولى عليهم وعمر بها
الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى أن جاء
الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك
بالفسطاط * ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها
مقر الملك الى اليوم * وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا في
الكتاب الكبير * ولترجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة :

فهذه المدينة مع سمعتها وتقادم عهدها وتداول الملل
عليها واستئصال الأمم اياها ، من تعفية آثارها ومحو رسومها
ونقل حجارتها وآلاتها وافساد أبنيتها وتشويه صورها ،
مضافا الى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها
من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل ، ويحسر دون وصفه
البليغ اللسن وكلما زدته تأملا ، زادك عجبا وكلما زدته نظرا
زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى ، أنباك بما هو أغرب ،
ومهما استثرت منه علما ذلك على أن وراءه ما هو اعظم *

فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر ، وهو حجر
واحد تسع أذرع ارتفاعا في ثمان طولاً في سبع عرضاً ، قد
حفر في وسطه بيت ، قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه
ذراعين والباقي فضاء البيت ، وجميعه ظاهرا وباطنا منقوش
ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس
مما يلي مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور
الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات : فمن بين
قائم وماش وماد رجلية وضامهما ومشمر للخدمة وجامل
آلات ومشير بها ، ينبى ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة

أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة وإشارات إلى أسرار غامضة وإنها لم تتخذ عبثاً ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن ، وقد كان هذا البيت ممكناً على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى طعماً فى المطالب ؛ فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله بعضه على بعض فتصدع صدوعاً طفيفة يسيرة . وهذا البيت قد كان فى هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية جافية على آتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة . وحجارة الهرم متواصلة فى جميع أقطار هذا الخراب ، وقد بقى فى بعضها حيطان مائلة بتلك الحجارة الجافية وفى بعضها أساس وفى بعضها أطلال ، ورأيت عقد باب شاهقاً ركناه حجران فقط وأزحجه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر فى ارتفاع اصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته ، فعلمت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات ، بينها بابان يجعل بين الحجرين ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الأندال المغرورون فقلقوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيراً من الحجارة حتى يصلوا إليها ولعمر الله قد بذلوا الجهد فى استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة . وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير ، وأما اتقان أشكالها واحكام هيئاتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة . . . فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعاً وكان مداه من جهة اليمين إلى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف إلى الامام على تلك النسبة ، وهو حجر واحد من

الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر كأنه لم يزد
تقادم الأيام الا جدة *

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظم النظام
الطبيعى والتناسب الحقيقى ، وأنت تعلم أن كل واحد من
الأعضاء الآلية والمتشابهة له فى نفسه مقدار ما وله الى سائر
الأعضاء نسبة ما بذلك المقدار . وبذلك النسبة تحصل
حسن الهيئة وملاحة الصورة ، فان اختلف شئ من ذلك حدث
من القبح بمقدار الخلل . وقد أحكم فى هذه الأصنام هذا
النظام احكاما آى احكام ، فمن ذلك مقادير الأعضاء فى
نفسها ثم نسب بعضها الى بعض ، فانك ترى الصنم قد يبتدىء
بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ
الصدر فى ارتفاع الترائب الى الشدوتين فيرتفعان عما دونهما
ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان الى حصد
الحلمة ، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم
تنحدر الى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزور
القلب والى تجميع الأضلاع والتوائها ، كما هو موجود فى
الحيوان الحقيقى . ثم تنحدر الى مقاطع الأضلاع ومراق
البطن والتواء العصب وعضل البطن يميناً وشمالاً وتوترها
وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلى الاقارب ثم تحقيق
السرة وتوتر العضل حولها ، ثم الانحدار الى الثنية والحالبين
وعروق الحلب والخروج منه الى عظمى الوركين ، وكذلك تجد
انفصال الكتف واتصالها بالعضد ثم بالساعد وانفتال حبل
الذراع والكوع والكرسوع وايرة المرفق ونهرى مفصل
الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر
العصب وغير ذلك مما يطول شرحه ، وقد صور كف بعضها
قايضا به على عمود قطره شبر كأنه كتاب ، وصورت الغضون

والأسارير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عند ما يقبض الانسان كفه ، وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله وأتم ما فى المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق الا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الأذن واختارها وتعارىجها على غاية التمثيل والتخييل .

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جدا وقد حفظ فيهما النظام الطبيعى والتناسب الحيوانى ، مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقى جدا جدا وقد تكسرا وردما بالتراب .

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاوّل الشكل ومقداره نصف الآجر الكسرى بالعراق . كما أن طوب مصر اليوم نصف آجر العراق اليوم أيضا .

وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفير العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ، ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض ، فان النصف الأسفل من الانسان أعظم من النصف الأعلى منه أعنى التنور بمقدار مفلوم ، بخلاف سائر الحيوان . والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر ورابع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناش

والسلاميات حافظة للنظام في مقاديرها ونسب بعضها الى بعض ، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كانهض اليافوخ عن ذروة الرأس وتتوّه عما دونه ، وامتداد الجبهة والجبين وتطامن الصدغين وتتوّه عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف ولين المارن وانفراج المنخرين وامتداد الوتر ودقة الشفتين واستدارة الحبك وانخراط الفكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة ، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل * وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا في المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له ، يدل على أن القوم كان لهم حداقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها ، وان جميع ما أدركوه وان جل فهو حقير تافه ، بالقياس الى الأمر الحقيقي المطبوع ، وانما يستعظم ما عرفه الانسان منه بالقياس الى ضعف قوته وبالقياس الى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه ، كما يتعجب من النملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل اذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال : من العجب أن نستحب علم احكام التصاوير وعمل الأصنام وافراغها وتبين حكمتها ، ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة ، ولا سيما اذا قوينا على معرفة عللها ، ولذلك لا ينبغي لنا أن نكره النظر فى طباع الحيوان الحقيقى الذى ليس بكريم ، ولا يثقل ذلك علينا كما يثقل على الصبيان * ففى جميع الأشياء الطباعية شىء عجيب ولذلك ينبغي لنا أن نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم أن فى جميعه شيئا طباعيا كريما ، لأنه لم يطبع شىء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبخت ، بل كل ما يكون من قبيل الطباع قائما يكون لشىء أعنى لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة * فتبارك الله أحسن الخالقين !!

وأما باطن الحيوان وتجويقاته وما فيها من العجائب التى تشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الأعضاء له ، فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيرا ولا يجد له على ذلك ظهيرا ويعلم مصداق قوله تعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » •

وأقول ان التعجب من الأمور الصناعية أيضا هو التعجب من الأمور الطباعية ؛ لأن الأمور الصناعية هى بوجه ما طباعية ، وذلك أنها حادثة عن قوى طباعية • وكما أن المهندس اذا حرك ثقلا عظيما استحق أن يتعجب منه ؛ فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلا تحرك تلك الصورة ثقلا ما كان ذلك المهندس أحرى أن يتعجب منه • والله خلقكم وما تعملون فتبارك من هذا ملكوته ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة • وفى أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا يحجب حجاب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • ومن أشباح الموجودات بقدرته قائمة وبارادته متحركة وساكنة وينفذ أمره فيها فرحة وباقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ، ولتكثرها تشهد بوحدانيته وبتغيرها تقرر بقدرته وان من شىء الا يسبح بحمده •

ولنرجع الى حديثنا الأول فنقول ، هذه الأصنام مع كثرتها قد تركتها الأيام الا الأقل منها جذاذا وغادرتها رمادا • ولقد شاهدت كبيرا منها وقد نحت من صلعتة رحا ولم يظهر فى صورته كبير تشويه ولا تغير بين ، ورأيت صنما وبين رجلية صنم متصل به صغير كأنه مولود بالقياس اليه ، وهو مع ذلك كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحظة والجمال ما يشوق الناظر اليه لا يمل من ملاحظته • واتخاذ الأصنام قد كان فى ذلك الزمان شائعا فى الأرض عاما فى الأمم ولهذا

قال تعالى في حق ابراهيم عليه السلام : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » أى كان وحده في زمنه موحدًا فهو أمة بنفسه لاعتزاله اياهم وانفراذه برأى يخالف آراءهم ، ولما رأى بنو اسرائيل تعظيم القبط هذه الأصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها وألفوا ذلك وأنسوا به لطول مقامهم بينهم ، ثم رأوا قوما من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون . ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطا وصابئة (١١) ، نزعوا الى الأصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة فى اتخاذ التصاوير فى بيعهم وهياكل عبادتهم وبالغوا فى ذلك وتفننوا فيه ، وربما تراموا فى الجهالة حتى يصوروا الههم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنن أوائلهم ، وان كان الأوائل يكبرون الاله أن يدخل تحت ادراك عقلى وحسى فضلا عن تصوير ، وانما سهل على النصارى ذلك وأجرأهم عليه اعتقادهم الالهية للبشر ، وقد حققنا القول فى ذلك فى مقالاتنا عليهم .

وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر . ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المثل . ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء

(١١) من المفهوم ان الصابئة غير النصارى ، لكن ابن حزم الظاهرى فى كتابه الفصل بين الملل والأهواء والنحل عقد مقارنة بينهما وأوجد بينهما بعض الشبه ، ج ١ ، ص ٥٠ وما بعدها .

فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته
وتؤثر الاطلاع عليه ، وأما فى زمننا هذا فترك الناس سدى
وسرحوا هملا وفوضت اليهم شئونهم فتحركوا بحسب أهوائهم
وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرئ منهم على
شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو
اليه هواه . فلما رأوا آثارها هائلة راعهم منظرها وظنوا
ظن السوء بمخبرها ، وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم
وأجل الأشياء فى قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل .

وكل شئ رآه ظنه قدحا وان رأى ظل شخص ظنه
الساقى فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على
مطلب ، وكل شئ مفطور فى جبل أنه يفضى الى كنز ،
وكل صنم عظيم أنه حاصل المال تحت قدميه وهو مهلك عليه ؛
فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه
ويفسدون صور الأصنام افساد من يرجو عندها المال ويخاف
منها التلف ، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمرأى أنها
صناديق مقللة على ذخائر ويسربون فى قطور الجبال سروب
متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهاز فرصة ، لم
يشعر غيره بها .

وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفا ،
ومنها ما يدخل سحباً على الوجوه ومنها مضايق لا ينسحب
فيها الا الضرب الضئيل وأكثر ذلك انما هو فطور طبيعة
الجبال .

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك ومن كان
فقيراً قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان
يخلفها له وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه علامات يدعى

أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله . وما أقبح بعد ذلك ماله !

ومما يقوى أطماعهم ويديم اصرارهم أنهم يجدون نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء ، وفيها من موتى القدماء الجرم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع فى قطع دقاق ، ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم . ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فما وجد فيه تماسكا ، اتخذها ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين . ويوجد بعض موتاهم فى توابيت من خشب الجميز ثخين ، ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة اما رخام واما صوان وبعضهم فى أزيار مملوءة عسلا ، وخبرنى الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الأهرام صادفوا دنا مختوما ففضوه فاذا فيه عسل ، فأكلوا منه فعلق فى اصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبي صغير متماسك الأعضاء رطب البدن عليه شيء من الحلى والجوهر . وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ، وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء ، وربما وجد عنده شيء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آلهة التي كان يزاول بها العمل فى حياته . وخبرنى الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين ، مسنا وموسى ، وعند آخر آلة الحجام ، وعند آخر آلة الحائك ، ويظهر من حالهم أنه قد كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آلهة وماله .

وسمعت أن طوائف من الحبشة هذه سنتهم يتطيرون بمتاع الميت أن يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه مائتا أوقية من الذهب ، وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فأخذه ممتنا عليهم *

وقد كان من سنتهم ، والله أعلم ، أن يجعل مع الميت شىء من الذهب ، فخيرنى بعض قضاة بوصير وهى مجاورة لمداقنهم أنهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفى كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاث فكان وزنها تسعة مثاقيل ، والحكايات فى ذلك أوسع من أن يحصرها هذا الكتاب *

وأما ما يوجد فى أجوافهم وأدمغتهم من الشىء الذى يسمونه موميا فكثير جدا ، يجلبه أهل الريف الى المدينة ويبيع بالشىء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصرى *

وآرائى بائعه جولقا مملوءا من ذلك فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ، ورأيته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه ، ورأيت أيضا على قحف الرأس أثر ثوب الكفن وأثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب وهذا الموميا هو أسود كالحقار ، ورأيته اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلصق بما يدنو منه ، واذا طرح على الجمر غلى ودخن منه رائحة القار أو الزفت ، والعالب أنه زفت ومر *

وأما الموميا بالحقيقى فشىء ينحدر من رءوس الجبال مع المياه ، ثم يجمد كالحقار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط

بمر . وقال جالينوس : الموميا يخرج من العيون كالقار والنفط . وقال غيره : هو صنف من القار ويسمى حيض الجبال ، وهذا الذي يوجد في تجاويف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وان يستعمل بدله اذا تعذر .

ومن أعجب ما يوجد في مدافنهم أصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات ، وقد كفن الواحد منها في كذا وكذا ثوبا وهو محتاط عليه محتفظ به ، وخبرني الثقة أنهم وجدوا بيتا تحت الأرض محكما ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تقمطت فأزالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها عجلا صحيحا قد أحكم تقميطة ، وحدثني آخر أنهم وجدوا صقرا فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوه ، لم تسقط منه ريشة ، وحكى لي مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه ويهجن ذكره .

وحكى لي الأمير الصادق أنه كان بقوص ، فجاء اليه من يبحث عن المطالب فذكروا له أنهم انخسفت بهم هوة ، موهمة أن فيها دفيئا ، فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا فوجدوا زيرا كبيرا موثق الرأس بالجص ، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالأصابع مكفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صيرا وهو سمك صغار وقد صار كالهباء اذا نفخ طار ، فنقلوا الزير الى مدينة قوص بين يدي الوالي واجتمع عليه نحو مائة رجل فحلوا الجميع حتى أتوا على آخره وهو كله صير مكفن ليس فيه سوى ذلك .

ورأيت أنا بعد ذلك في مدافنهم ببوصير من العجائب مالا يفي به هذا الكتاب ، فمن ذلك اني وجدت في هذه المدافن مغائر تحت الأرض مبنية باتقان وفيها رمم مكفنة ،

وقى كل مغارة عدد لا يحصى ومن المغائر ما هو مملوء برمم الكلاب ، ومنها ما هو مملوء برمم البقر ، ومنها ما فيه رمم السنانير والجميع مكفن بخرق القنب ، ورأيت شيئا من عظام بنى آدم وقد تمشق حتى صار كالليف الأبيض لقدمه ، ومع ذلك فأكثر الرمم التى رأيتها صلبة متماسكة جدا يظهر عليها من الطرارة أكثر من رمم الهالكين سنة سبع وتسعين وخمسمائة الآتى ذكرها آخر كتابنا هذا ، و سيما ما كان من الرمم القديمة قد انصبغ بالزفت والقطران فانك تجدها فى لون الحديد وصلابته ورزائته ، ورأيت من جماجم البقر ما شاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤوس المعز والضأن وبين رؤوس البقر والثيران ، ووجدت لحم البقر قد التصق بالأكفان حتى صار قطعة احدة حمراء تقرب الى السواد ، ويخرج العظم من تحتها أبيض وبعض العظام أحمر وبعضها أسود وكذلك فى عظام الأدمى ، ولا شك فى أن الأكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يكفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغته فاحمر واسود . ووجدت فى عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون فى جملتها مائة ألف رأس كلب أو يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب ، فان جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور وأخذ ما سنع لهم من الخشب والخرق وغيره . واستقرت جميع المواضع المحكمة فلم أجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقى ذلك فى نفسى . فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى اخبارى بأنهم قد تقدمت فكرتهم فى ذلك واستقروا اياه فلم يجدوه . وأكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوى الصلب ومنه ما صار فى درجة الرماد ، وخبرنى قضاة بوصير بعجائب منها أنهم وجدوا ناوسا من حجر ففضوه فلقوا فيه ناوسا ، ففضوه فوجدوا فيه تابوتا ،

ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهى سام البرص مكفنة محتاطا عليها معنيا بها *

ووجدنا عند بوصير أهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقي قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمى الجيزة *

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابى وبغيرها *

واعلم أن الأهرام لم أجد لها ذكرا فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ، وإنما قال فى اثناء قوله فى السياسة : كما كان من سنة المصريين البناء ، وللاسكندر الأفروديسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشئ من اخبار القبط ، وأما جالينوس فرأيته ذكر الأهرام فى موضع واحد وجعله من هرم الشينوخة ، وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقرط : فمن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر ، فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة * هذا معنى قوله ، وقال فى كتاب عمل التشريح : فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها ؛ فينبغى له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء *

واعلم أن القبط بمصر نظير النبط بالعراق * ومنف نظيرة بابل والروم والأقاصير بمصر نظير الفرس والأكاسرة بالعراق والاسكندرية نظير المدائن ، والفسطاط نظير بغداد * والجميع اليوم بعد الاسلام وتشمله دعوة بنى العباس *

الفصل الخامس

فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في غاية .
حتى انهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم
أقبح (١) وغالب سكنهم في الأعلى ويجعلون منافذ منازلهم
تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا الا وتجد
فيه باذاهيح (٢) وبأذاهيجاتهم (٣) كبار واسطة للريح عليها
تسلط ويحكمونها غاية الاحكام ، حتى انه يقوم على عمارة
الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة ، وان كانت باذاهيجات
المنازل الصغار يفرم على الواحد منها دينار وأسواقهم
وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت
والطوب الأحمر وهو الآجر ، شكل طوبهم على نصف طوب
العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى انه تخرب الدار
والقناة قائمة ، ويحضرون الكنف (٤) الى الممين فتغير عليها
برهة من الدهر طويلا ولا يفتقر الى كسح * واذا أرادوا

(١) هذا خطأ في طبعة مجلة المصري ، والصحيح ما ورد في طبعة مطبعة وادي

النيل : اتيج ، أى فيحاء ، وليس اتيج .

(٢) في طبعة مطبعة وادي النيل باداهنج .

(٣) في طبعة مطبعة وادي النيل باداهنجاتهم .

(٤) جمع كنيف (دورة المياه) .

بناؤ ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضّر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد إلى جزء جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد إلى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك .

وأما المسناة فيسمونها الرزينة ولهم في بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر الأساس حتى تظهر الندادة وشرير الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الأرض الندية بعد ما تمهد ، ويكون عرضه نحو ثلثي ذراع وقطر حلقتة نحو ذراعين مثل الذي يجعل في قعر الآبار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة النشور . فيأتي الفواصون وينزلون هذه البير ، يحفرونها وكلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ، ويحفرون أيضا تحت ذلك الملبن فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته والبناء في أثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ، ولا يزال البناء يرفع والفاعل تحته يحفر وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلدة ويصل إلى الجبد الذي يعرفونه ، فحينئذ ينتقلون إلى عمل آخر مثله على ستمته وعلى بعد أربع أذرع منه أو نحوها ، ولا يزالون يفعلون ذلك في جميع طول الأساس المفروض ثم يبنون الأساس كالعادة بعد ردم هذه الآبار ؛ فترجع أوتادا راسية للبناء وعمدا تدعّمه وتوثقه .

وأما حماياتهم فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا . أما أولا ، فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا

وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطاً فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحو ربعة فوق الأرض وسائرة في عمقها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه * وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفي المسلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص ؛ حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ؛ لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء في أن يتخذ دارا لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه *

وفي موقده حكمة عجيبة ، وذلك أن يتخذ بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل اليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص كقدور الهراس لكنها أكبر منها ، وتتصل هذه القدور قرب أعاليها بمجار من أنابيب فيدخل الماء من مجرى البير الى فسقية عظيمة ، ثم منها الى القدر الأولى فيكون فيها باردا على حاله ثم يجري منها الى الثانية فيسخن قليلا ، ثم الى الثالثة فيسخن أكثر من ذلك ثم الى الرابعة فيتناهى حره ، ثم يخرج من الرابعة الى مجارى الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بأيسر كلفة وأهون سعى وأقصر زمان وهذا العمل حاكوا به فعل الطبيعة في بطون الحيوان وطبخها الغذاء ، فان الغذاء يتنقل في الأمعاء وآلات

الغذاء التي هي لكل حيوان وكلما صار الغذاء الى مصر ،
حصل على صنف من الهضم ومقدار من النضيج حتى يصل الى
المعاء الأخير وقد تناهى *

واعلم أن هذه القدر كل حين تحتاج الى تجديد
ما ينقصها فتوجد القدر الأولى التي هي وعاء البارد قد
نقصت أكثر من نقصان القدر التي هي وعاء الحار بمقدارين
ولذلك علة طبيعية ليس هذا موضعها *

ويفرشون أرض الأتون التي هي مقر النار بنحو خمسين
أردباً ملحاً وهكذا يفعلون بأرض الأفران ؛ لأن الملح من طبيعته
حفظ الحرارة *

وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال واغرب ما رأيت
فيها مركب يسمونه العشري شكله شكل شجرة داخلية ، الا أنه
أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً ، قد سطح
بالواح من خشب ثمينة محكمة وأخرج منها أفاريز
كالرواشن (٥) نحو ذراعين ، وبنى فوق هذا السطح بيت من
خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات ورواذن بأبواب الى
البحر من سائر جهاته ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة
ومرحاض ، ثم يزوق بأصناف الأصباغ ويدهن بأحسن
دهان *

وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس
جالساً في وسادته وخواصه حوله والغلمان ، والماليك قيام
بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم
في قعر المركب ، والملاحون تحت السطح أيضاً وفي باقي المركب

(٥) جمع روشان والمقصود بها التراس الصغير أو البلكونة *

يقذفون به لا يعلمون شيئاً من أحوال الركاب ولا الركاب
تشتغل خواطيرهم بهم كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول
بما هو بصدده ، وإذا أراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن
أصحابه دخل المخدع ، وإذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض ،
والملاحون بمصر يقذفون إلى ورائهم فهم في قذفهم يشبهون
الجبالين في مشيهم القهقري ويشبهون في تحريكهم السفن
من يجذب ثقلاً بين يديه ويمشي به إلى خلفه ، وأما ملاحو
العراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل أمامه ويدسر به فسفنهم
تتوجه حيث الملاح متجه ، وأما سفن مصر فهي تتحرك إلى ضد
الجهة التي إليها الملاح متوجه - وأما أي الحالتين أسهل
والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعي وعلم تحريك
الأثقال .

الفصل السادس

فى غرائب أطعمتها

فمن ذلك النيدة (٦) وهى بمنزلة الخبيص حمراء الى السواد وهى حلوة لا فى الغاية وتتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاء وقوته فى الماء ، ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلى ، ثم يندر عليه الدقيق ويعقد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى نيدة البوش ، وقد يطبخ ذلك الماء وحده حتى ينعقد من غير دقيق وتسمى النيدة المعقودة وهى أغلى من الأولى وأعلى *

ويختصون أيضا باستخراج دهن بزر الفجل والسلجم والخس ، ويستصحبون به ويعملون منه الصابون ، وصابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر وبه شبهت الصابونية واليه نسبت *

(٦) ورد فى تذكرة داود (القرن ١١ هـ) عن النيدة ما بلى :
« (نيدة) هى حلوة تعمل بمصر من الحنطة دون أن يخالطها شيء من الحلوات وأجودها النقى الصادق الصلابة المحكم الطبخ ؛ وهى حارة فى الأولى معتدلة أجود من النشا تولد خلطا جيدا وتسمن المهزولين وتعديل البلغم وتنفع من البخار السوداوى والوسواس والماليخوليا والسعال اليابس وأوجاع الصدر وهى بطيئة الهضم ثقيلة تولد السدد والحميات والمطبوخ منها باللوز ردىء جدا وينبغى أن تؤكل على الجوع ولا تتبع بشيء حتى تنهضم وإن لا يتناولها صاحب دعة ؛ لأنها من أغذية أصحاب الكد ويصلحها السكندجيين وماء الهندباء » *

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسواذج هي المعهودة أو قريبة من المعهودة ، وأما المحليات فغريبة وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات ، وسبيل ذلك أن تسلق الدجاج ثم ترمى في الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو بزر رجلة أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع ، وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخشية والوردية وست المنوية للتي تعقد ببزر الرجلة لسوادها ويتفننون في ذلك تفننا يحتاج الى شرح أكثر من هذا .

أما الحلويات المتخذة من السكر ، فأصناف كثيرة يؤدي استقصاؤها الى الخروج عن الغرض ويحوج الى وضع كتاب مفرد ، وقد يتخذ منها ما يصلح لداواة الأمراض ولأرباب الحمية من المرضى والناقلين اذا تآقت أنفسهم الى الحلوى ، فمن ذلك خبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلية المتخذة بالزنجبيل ، وكأقراص العود وأقراص الليمون والأقراص الممسكة وغير ذلك ، وكثيرا ما يستعملون الفستق في أطبختهم وحلوائهم عوض اللوز وهو مما يفتح سدد الكبد ، ويتخذون منه هريسة تسمى هريسة الفستق وهي لذيذة جدا مسمنة وموادها لحم دجاج مسلوق منسر جزء وجلاب جزءان ومثل ثمن الجميع أو تسعه فستق مقشور مهروس ، وكيفية عمله أن يمسح اللحم المنسر بالسيرج ويجعل بالدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقي على الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع .

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحواري ثلاثون رطلا بالبغدادى ويمجن

مع خمسة أرتال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكنان (٧) ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس قد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة، ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفسق المهروس والأفاويه العطرة الحارة بالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى (٨) والكزبرة والكمون والهال (٩) الجوزة ونحو ذلك ، ويرش

(٧) في تذكرة داود أن الخشكنان ويكتب أيضا الخشكنانج هو دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج ويبسط وملئ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الرود وجمع وخبز ، وأهل الشام يسمونه المكفن ٠٠٠

(٨) ورد في تذكرة داود الانطاكي : (مصطكى) معرب عن مصطيا اليوناني يسمى الكنة والعلك الرومي والمراد بهذا الاسم عند الإطلاق الصمغ ، وهو نوعان : أبيض ناعم طيب الرائحة فيه لدونة حلز أسود الى المرارة يسحق ويسمى المعلق قيل انه يؤخذ بالشرط والصحيح أن الأول هو المدفوع بحركة الطبيعة الى ظاهر العود كغيره من الصمغ ، والثاني يؤخذ من العود الغض والورق بالطبخ ولا يوجد الا بصاقس من أعمال رودس مما يلي الترك في الخامس وقيل يوجد باشبيلية من الأندلس ولكنه غير جيد وشجرها في السباطة ولطف العود والورق كشجر الأراك ولها ثمر يقضم الى المرارة ويؤخذ هذا الصمغ في شمس الجوزاء وتبقى قوته نحو عشرين سنة وهي حارة في الثانية يابس في الثالثة تذهب الصداع والنزلات وتسهل البلغم مع الغاريقون وما تشبهت بالصغفاء مع الصبر والسوداء والوسواس وحديث النفس ومبادئ المايفوليا مع الاهليجات وتوقد التوازل وتنقى القمبة وتقطع النفث والنزف مع الكهربا مجرب وتحد الفهم مع الكندر وتذهب قراقر المعدة وسوء الهضم والرياح الغليظة وضعف الكبد والطحال وألم الكسر والخلع والوشى والقروح مطلقا وان طبخت في الشيرج وقطرت في الأذن فتحت السدد وأزاللت الصمم مجرب وتلصق وان نجر بها قطن بل ماء ورد وجعل على العين سكنت الرمذ والوجع مجرب وتعديل الأسنان واللثة كيف استعملت وان طبخت مع الزيت أزاللت النافض والكزاز والرعشة والضرعان والأعيان مجرب .

(٩) هو ما يعرف في مصر باسم حبهان ، وفي الخليج والسعودية باسم الهيل ، وقد أوردته داود في تذكرته تحت اسم قاقلة . يقول الانطاكي : (قاقلة) هو البيلبوا والهال والشوشمير وهو حب يخرج في أصل نحو دراعين عريض الأوراق خشن حاد الرائحة يكون فيه هذا الحب كما يرى بهذه الصورة مفرقا ، هو ذكر مثلث الشكل بين طول واستدارة ينفرك عن الشكل المذكور وقد رصفت فيه الحبات كل واحدة كالعنسة لكنها ليست مفرطة وأنثى غلافها نحو اصبع مثلث أيضا ينفرك عن حب كالحمص ومنايت الكل أرض الدكن وجبال ملعقة ويدرك بشمس الأسد وتبقى قوته عشر سنين وهو حار يابس والصغير في الثانية والكبير في الثالثة يطيب =

عليه ماء ورد قد أذيب فيه مسك ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وعشرون فرخا بعضه مشوى محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطبخ بماء الحصرم (١٠) أو بماء الليمون أو بنحو ذلك ، ثم يشور بالسنبوسك (١١) والقماقم المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها ، وان شئت أن تزيده خروفا آخر تتخذة شرائح فلا بأس وكذا جنبيا مقلوا ، فاذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد

= الفم ويزيل البخر والروائح الكريهة ويرد المعدة والكبد والرياح الغليظة والحصى اكلا والمرع سموطا والقيء بماء الرمان والسدد بالسكنجبين ويفرح تفريحا عظيما خصوصا الكبار والصغير فى الهضم أجود وهو يضر السفلى ويصلحه كثيرا وشربته الى درهمين وبدله نصفه كبابة ومثله حب بلسان .

(١٠) (حصرم) هو الأخضر من العنب وأجوده الخالى من الحلاوة ويدرك بحزيران وهو بارد يابس فى الثانية أو ييبس فى الأولى يقع الاخلاط الصفراوية والدوخة والعطش ويزيل الاسترخاء والترهل مطلقا ومبادئ الحصف والحكة دلكا خصوصا يابسه ويطبب العرق وماؤه فى ذلك اشد واذا طبخ به ورق الزيتون حتى يصير درهما قلع الانسان اذا وضع عليها بلا آلة واذا عصر وجفف فى الشمس ورفع كانت هذه نافعة من الخناق وأورام الحلق واسترخاء المقعدة وسقوط اللهاة والرعاف وقذف الدم مطلقا والجدرى والاسهال المزمن شربا وطلاءا وتصلح القلاع وتعرف برب الحصرم والأولى تجفيفها فى نحو الزجاج لا فى نحاس أحمر لأنه يضر الحوامل ومتى مزج هذا الماء أو العصارة الجافة بشئ من العسل ووضع فى الشمس كان شرابا جيدا كما نكر فى العصارة واذا حلت بماء الكراث جففت البواسير طلاء أو حملت فرزجة نقت الرحم وأصلحته بالفسا وهو يضر الصدر ويحدث السعال ويصلحه الجلنجبين وشراب الخشخاش وأصلحه أن لا يستعمل قبل سنة وشرية العصارة الى مثقال والشراب الى رطل وبدله ماء التفاح الحامض .

(١١) (سنبوسك) باليونانية بزماورد وهو عجين يحكم عجنه بالادهان كالشيرح والسمن ثم يرق ويحشى بلحم قد نعم طعمه وفوه ويزر ممزجا بالحبس والشيرج يطوى عليه ويقللى فى الدهن أو يخبز وأجوده ما حمض بنحو الليمون وكان لحمه صغيرا أو عمل من الدجاج وهو حار رطب فى الثانية والمخبوز يابس فى الأولى يغذى جيدا ويسمن ويربى اللحم ويقوى الأعصاب ويهيج الشهوة والمخبوز للمرطوبين أجود من المقلى والمقلى لأصحاب السواد والهزال أجود وهو ثقيل عسر الدضم يولد السدد والرياح الغليظة واذا تجاوز بعد خبزه أكثر من يومين فى الصيف فلا يجوز تعاطيه ويصلحه السكنجبين .

أذيب فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثاني من العجين بعد أن يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منه نفس أصلا ، ثم يقرب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء فى النضج فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بعراها رويدا رويدا ، ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح بأسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل . وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى منضدياتهم النائبة ومتنزهاتهم النازحة ؛ فانه وحده جملة فيها تفصيل سهل الحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المنبر يحفظ الحرارة مدة طويلة .

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك ، وأكثر أغذيتهم الصبر والمحنة (١٢) والدلنس والخبز

(١٢) (صبر) بكسر الموحدة ويقال صبارة أضلاعه كالقزبيط وأعرض وعلى أطرافه شوك صغار وتعيش أين وضعت كالعنصل وتكتفى بالهواء عن الماء وإذا عتقت قام فى وسطها قضيب نحو ذراع يحمل ثمرات كالبالج الصغير أخضر ويحمر عند استوائه وهذا الثمر منه دقيق الطرفين يسمى أنثى ومتناسب غليظ هو الذكر والصبر عصارة هذه الأضلاع وهو إما أصفر الى حمرة سريع التفتت براق طيب الرائحة وهو السقطرى أو صلب أغبر يسمى العرعى أو كدهش يسمى السجاني بالمعجمة التلمية وهو رديء والصبر من الأدوية الشريفة قيل لما جلبه الاسكندر من اليمن الى مصر كتب اليه المعلم أن لا تقيم على هذه الشجرة خادما غير اليونانيين لأن الناس لا يدرون قدرها ، وأجود ما اعتصر فى السرطان ثم يوصع بعد التشميس فى الجلود وتبقى قوته أربع سنين وعلامة الحديث منه خلوه عن السوداء وتخلقه بلون الكبد اذا نفخ فيه وهو حار يابس فى الثالثة أو الثانية يخرج الأخلاط الثلاثة وينقى الدماغ مع المصطكى والمفاصل بالعاريقون والربو وأوجاع الصدر وأمراض المعدة كلها والطحال والكلى ويقع فى الحبوب النفيسة ويقوى أفعال الأدوية ويجذب من الأقاصى ويفتح السدد الى طريق الكبد ويحفظ الأبدان من البلى ويذهب رياح الأحشاء والحكة والجرب والقروح والقوابى والجنون والجدام والوسواس والبواسير والشقاق شربا والسقطة والضربة والأورام والآثار والنزلات والصداع والنملة والحمرة وأنسار الأواكل خلال بعسل أو غيره ومع المرسين والسذاب يطول الشعر ويسوده ويمنع تساقطه ويقتل القمل وينبت الشعر بعد القراع مجرب ، وإذا حل بالخل وغسل به أذهب السعفة والحزان ودام الشلب والاكتهال به يحد البصر ويذهب السلاق =

والنيدة ونحو ذلك وشرابهم البوظة وهو نبيذ يتخذ من القمح ، ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتولد فى الصحارى والفيضان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط ، وبالصيد قوم يأكلون الثعابين والميتان من الحمير والدواب ، وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر ، وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز والسماق والمدققات وغير ذلك .

آخر المقالة الأولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين .

= والجرب والحرقة وغلظ الأجفان وإن طبخ بماء الكواث وسلخ الحية أبراً أمراض المقعدة جميعاً وأسقط البواسير كيف استعمل وهو يبول الدم ويضر الشبان ويفسد الكبد ويبقى فى طبقات المعدة سبعة أيام وتصلحه المصطكى والورد الأصفر والافستين والزعفران وشربته مثقال وبدله حضض أو نصفه أفسنتين وربعه زعفران وإن لا يستعمل منه غير السقطرى (صبار) التمر هندى . أما (صحناء) لا تعرف إلا بالعراق ويقرب منها ما يعمل بمصر ويسمى الملوحة . وصنعتة : أن يؤخذ السمك الصغير أو تقطع الكبار هغاراً وتترك ثلاثة أيام ثم تغمر بالماء والملح أياماً حتى تنهري فتصفى وترفع والملوحة تبقى صحيحة وكله حار يابس فى أوائل الثانية يجفف الرطوبات ويذهب البخار وتنثن الأبط وينتفع من الغاليج وهو تعفن الخلط وتقرح وتعطش ويصلحها الزنجبيل بالخاصية والحلاوات .

المقالة الثانية

الفصل الاول

فى النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك

اعلم أن نيل مصر يمد وقت نضوب مياه الأرض وذلك فى شمس السرطان والأسد السنبله ، فيعلو على الأرض ويقيم أياما فاذا نزل عنها حرثت وزرعت ، ثم يكثُر الندى فى الليل جدا وبه يتغذى الزرع الى أن يحصد ، ونهاية ما تدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانى عشرة ذراعا فان زاد على ذلك ، فانه يروى أمكنة مستعملة وكأنه نافلة وعلى جهة التبرع ونهاية ما يزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته أن يزرع نحو مما روى مما عادته أن يشرق ، ولنسم الثمانى عشرة نهاية الضرورى ولنسم العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها . فابتداء الضرورى ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السرطان ، اذ عنده يستحق الخراج ويدوى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يحان أهل البلاد سنانهم جمعا مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالرئ بما زاد على ست عشرة ذراعا الى ثمانى عشرة ، وهذا يقل بمقدار

ما يميز أهل البلاد سنتين فصاعدا ، وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم ، ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا *

وحيث يقال ان البلاد قد شرقت ، واشتقاقها من قولهم شرقت الشمس اذا لمعت وظهرت ، وشرقت اللحم اذا نشرته ليجم ، ومنه قيل أيام التشريق لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها أى تبسط ، ومنه أيضا قولهم شرق بالماء وبالشراب لأن الماء عند الاغتصاص وانسداد الحلق يظهر ويبرز ولا يلج ، ولما كانت الأرض في السنة التي يوفى نيلها بارزة لا يسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تتغط ولم ينلها النيل ، ويجوز أن يكون التشريق ريحا شرقية ؛ لأن الريح الشرقية والقبليية وهى الجنوب هما عندهم دليل نقص الماء وسببه والغربية البحرية وهى الشمال هما عندهم دليل الزيادة وسببها ، فيكون معنى قولهم شرقت البلاد أى كثر هبوب الرياح الشرقية حتى نسفت الماء وأظهرت الأرض ، ثم سميت الأرض شرقية باسم الريح وجمعت على شراقي مثل كرسى وكراسى وبختى وبخاتى * وأما النيل فهو فعل من نال نيلا ومن نال ينول نولا ، يقال نولته تنويلا ونلته نولا اذا أعطيته ، والنيل اسم ما ينال مثل الرعى للمصدر والرعى لما يرعى وليس هذا من غرضنا ولكنه أمر عن فقلنا فيه *

فمتى نقص عن الست عشرة ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط ، وكنا قد سقنا فى الكتاب الكبير سنى الافراط والتفريط منذ الهجرة الى سنتنا هذه ، وأما هنا فانما نقص ما شاهدنا على ما شرطنا *

واتفق أن زيادة النيل بلغت سنة ست وتسعين وخمسائة اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعاً ، وهذا المقدار

نادر جدا ، فانه لم يبلغنا منذ الهجرة الى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط الا فى سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ فانه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع ، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع ، فانه وقع نحو ست مرات فى هذه المدة الطويلة ، وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع ، فانه وقع نحو عشرين مرة ، وأما خمس عشرة ذراعا فأكثر من ذلك كثيرا ونحن نسوق أحوال زيادته فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ثم نتبع ذلك بما حصل عندنا من علل ذلك وقوانينه ، فنقول ان العادة جارية أن تبتدىء الزيادة من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابيه ثم تنحط - فدخل أبيب فى هذه السنة وابتدأ النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت فى مائه خضرة سلقية ، ثم كشرت وظهرت فى رائحته ذفرة كريهة وعفونة طحلبية كأنه عصارة السلق اذا بقى أياما حتى يعفن وجعلت منه وعاء ضيق الرأس فعلاه سحابة خضراء فرفعتها برفق وتركتهما تجف اذا بها طحلب لا شك فيه ، ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة غير صاف لا خضرة فيه الا أن طعمه وريحه باقيان ، وتجدد فيه أيضا أجساما صفارا نباتية ميثوثة كالهباء ولا ترسب وصار أرباب الحمية يتجنبون شربه وانما يشربون ماء الآبار وأغليته بالنار ظنا منى أنه يصلح بذلك كما وصى الأطباء أن يفعل بالمياه المتغيرة فزاد طعمه وريحه كراهة وسهكا فوجدت عليه ، ذلك أن الأجزاء النباتية التى هى ميثوثة فيه يلطف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطا أشد عن الأول فيظهر التغير فى ريحه وطعمه أكثر ويصير ذلك بمنزلة الماء اذا طبخ فيه سلق أو فجل أو نحوه ، فان النار تمزج بين الماء ولطيف النبات ،

وأما الماء الذي يصلح بالطبخ وإياه قصد الأطباء فهو الذي
تغيره بمخالطته أجزاء أرضية ، فإنها تنفصل عنه بالطبخ لأن
الماء حينئذ يلفف فترسب فيه .

ثم إنه دامت خضرته أياما من رجب وشعبان ورمضان ،
واضمحلت في شوال ، وكان يصحب الخضرة دود وحيوانات
وهذا التغير في الماء يكون بالصعيد أكثر لأنه أقرب إلى المبدأ
والمعدن ، وانتهت زيادته في الحادي عشر من توت إلى اثنتي
عشرة ذراعا واحدا وعشرين أصبعا ثم انحط . وورد في
شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم
ويلتمس عوضه ، وذكر فيه أن مطرهم في هذه السنة ضعيف
وأن النيل قليل المد لذلك .

وكنا اقتصصنا في ذلك الكتاب حال النيل في هذه
السنة وفي السنين الخوالي ، رجاء أن نعثر على نسب بينها
وأعراض لها نقف منها على المتجددات من أحوال النيل في
سنى النقصان ، فيمكننا تقدم المعرفة وأخذ الأهبة والالذار
بالحوادث المتوقعة ، فإن أقباط الصعيد يزعمون أنهم يتكهنون
على مقدار الزيادة في السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه
في ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من
مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل ، وقوم يتكهنون من
حمل النحل ، وقوم من تعميل النحل .

فرايت في الغالب من حال القاع إذا كان أقل من المعتاد
كانت الزيادة في تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الأكثرى ،
فإن أتت الخضرة في أول زيادته وقبيلها ، قوى الظن بضعف
جريته فإن طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة ، قوى
الظن جدا بقلته فإن دامت الخضرة في أبيب أذن بقله
المد وعله هذا ظاهرة ، أما كون قلة القاع دليلا على قلة

الزيادة ؛ فلأن المطر الذى هو علة الزيادة ينبغى أن يكون فيه من الكثرة ما يرد القاع الى الحالة المعتادة يزيد عليها الزيادة المعتادة وهذه كثرة لا تفى بها أمطار كل سنة ولا توجد كل وقت ، مثاله أن القاع اذا كان ذراعا مثلاً فينبغى أن تكون الزيادة الى عشر أذرع وكون هذا أيسر من الأول * وأيضا ، فان جرية النيل الأصلية مادتها عيون ، وأما زيادته فمادتها أمطار ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك ، وأيضا فان المد الزائد على القاع أكثره فى الغالب ثلاث عشرة ذراعا فاذا كان القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا ، لم يلحق ماء السرطان .

وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة ، فلأن النيل الماضى يغادر نقائع وغدرانها بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن ، فاذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بها وصبتها الى النيل ، ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها بل النقائع تغلب على الأمطار المتصلة بها فتحيلها الى الفساد وينحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل الينا ، وكلما كانت الأمطار أضعف وأقل كانت أيام جرى الخضرة أطول فاذا كانت أمطار قوية ، غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحورتها بسرعة مغمورة بطين تجرفه بقوتها فيخفى منظرها ، ويتعفى أثرها * وأيضا فان الأنهار الخارجة من جبل القمر تجتمع بأخرى الى بركة عظيمة ذات مساحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل ، ولا شك فى أن هذه البركة ملؤها دائم فيطحلب ولا سيما شطوطها وضحاها فاذا وقع الوسمى وجرى اليها سبيولة ، أثارت ما فى قعرها وحركت ما كان ساكنا فيها وانكسح أيضا ما فى الشطوط

الى الأوساط وانسحبت الى حمل الجرية فاستصحبته ، وأما كون الخضرة في أبيب دليل النقصان فلأن أبيب مظنة الزيادة وغلبة الماء على هذه الأوشاب فاذا بقى على خضرته ابان زيادته أذن بقلته ، وهذه الأجزاء النباتية التي تصحب الماء انما هي حطام النبات المتكون في الماء وحوله كالبردى والديس (١) والسمار المطحلب وغير ذلك فتعفن فيه وتصفى أجزاءه وتنبت معه ، ومما يوجب انبعاثها أيضا نقصان الماء من تلك البركة فان ماءها اذا قل اتصلت الجرية بقعرها فانسحب كدرها وراسبها ، واذا كانت غمرا كانت الجرية من أعلاها وصفوها فاعرف ذلك . ولهذا لا تأتي هذه الخضرة الا في السنة التي يحترق فيها النيل وكلما كان احتراقه أشد ، كان ظهور الخضرة أكثر وفي السنة التي يكون نيلها غمرا لا يحترق لا ترى الخضرة ؛ لأن كثرت لكثرة مبدية وارتفاع جريه عن مقر كدورته *

فاذا اجتمعت هذه الدلائل كلها أو جلها في سنة فظننا قويا بأن الزيادة قليلة فيها فهذه فائدة هذا الاقتصاص ، وفيه فوائد أخر منها أن من يأتي بعد اذا أضافه الى ما يشاهده ، يوشك أن يعثر منه على مناسبة أو دلالة أخرى على مقدار الزيادة والنقصان في كل سنة ، ومنها ان أصحاب الأحكام النجومية اذا تأملوا المدد التي بين النقصانات والزيادات واعتبروا أحوال الكواكب والاقترانات فيها وطوالع مصر وبلاد السودان وأرباب الولايات فيها من الكواكب ومزجوا ذلك ، أمكن أن تقوم لهم مما يتكرر صورة تجريبية في مقدار الزيادة والنقصان فاني الى الآن لم أر لمنجمي مصر بذلك

(١) الديس عامية ، وهو جنس نبات من الفصيلة السعدية ويقال له أيضا أسل الخب
Scripe معجم خياط *

عناية ، ولم أجد عندهم ما تسكن اليه النفس سوى كسر
ولا ينبنى على أصل *

فانه بهذا الطريق استخرج معظم أحكام النجوم ، وذلك
أنهم شاهدوا حوادث أرضية تقترب بنصبات فلكية وحركات
علوية ورصدوا ذلك فألفوه يتكرر ؛ فنسبوا تلك الحوادث الى
تلك الهيئات والنصبات فصاروا متى عثروا فى تسييرهم
لحركات الأشخاص العلوية على مثل تلك النصب والهيئة
حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة *

ويروى عن أهل التجربة من قدام الأقباط أنه اذا
كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنى عشرة اصبعا
من اثنى عشرة ذراعا فهى سنة ماء والا فالماء ناقص ، ورأيت
بعض من شرح الثمرة لبطليموس ذكر فى تفسير الكلمة
الأخيرة التى يقول فى أولها : النيازك تدل على جفاف الأبخرة
فاذا كان فى جهة واحدة دلت على رياح تعرض فى تلك الجهة
واذا كانت شائعة فى الجهات كلها ، دلت على نقصان المياه
واضطراب الهواء وعلى جيوش تختلف ، فقال هذا المفسر : انى
لأذكر فى سنة تسعين ومائتين أن الشهب بمصر انتشرت وعمت
الجو بأسره فارتاع الناس ولم تزل تكثر فلم يمتد ذلك
جزء من السنة يسير حتى ظمى الناس وبلغ نيل مصر ثلاث
عشرة ذراعا واضطرب الناس اضطرابا ، زالت به دولة
الطولونى من مصر وانتشرت فى سنة ثلثمائة من سائر جهات
الجو فنقص النيل أيضا ووقعت همرجات واضطراب فى
المملكة ، وهذه لعمري دلائل قوية ولكنها عامة لجميع
الأقاليم وليست خاصة بمصر فقط - على أنه أيضا قد وقع
هذا الحادث بعينه فى سنتنا هذه من تناثر الكواكب فى أولها
ونشيش الماء فى آخرها وتغير ملك لمصر فيها بعمه الملك
العادل بعد حرب كانت بينهما *

الفصل الثمانى

فى حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع مئترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا فى البلاد ومزقوا كل ممزق ، ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والآرواث ، ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل .

ورأيت صغيرا مشويا فى قفة ، وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة يزعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما .

ووجد فى رمضان وبمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم ، فأكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة ،

وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح ، وحينما نشم الفقراء فى أكل بنى آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون فى ذلك استفظاعا لأمره وتعجبا من ندوره . ثم اشتد قربهم اليه واعتيادهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخرا وتفننوا فيه . وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر : فسقط حينئذ التعجب والاستبشاح واستهجن الكلام فيه والسماع له .

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونها وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ؛ فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه .

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه .

وفى بعض الليالى بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها ، اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه ، وجعلت تأكل منه نيا . وحكى لى عدة نساء أنه يتوثب عليهن لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن .

ورأيت مع امرأة فطيمة لحима فاستحسنته وأوصيتها بحفظه ، فحككت لى أنها بينا تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله وأن الولد بقى مدة مريضا لشدة تجاذه بين المرأة والمفترس ، وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين فى جميع أقطار البلاد وأزقة

الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونسأؤهم
يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في
الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ *

وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة
فيه الا أن النساء أقل حيلة من الرجال وأضيف عن التباعد
والاستتار * ولقد أحرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون
امراة كل منهن تقرر أنها أكلت جماعة ، فرأيت امراة قد
أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل شوى فضربت أكثر من
مائتى سوط على أن تقرر فلا تحير جوابا ، بل تجدها قد
انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت *

واذا أحرق أكل أصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء
ويستغنى عن طبخه *

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى فنى أكثرهم ،
ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم
من يفعل له حاجة ومنهم من يفعله استطابة * وحكى لنا رجل
أنه كان له صديق أدقع فى هذه النازلة فدعاه صديقه هذا
الى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل ، فلما
دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم
طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز ؛ فراه ذلك وطلب المرحاض
فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمى وبالحم الطرى
فارتاع وخرج فارا *

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف
الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل (١) ، وقد جرى
ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى ، أما أحدهم فان أباه

(١) الحيل والخداع *

خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استتراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضه فى الشارع بزعمه وجعل فى أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يفتنم الشواب ويتضاعف الأجر ومثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه ، حتى أدخله دارا خربة فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج وسبق الرجل فاستفتح ، فخرج اليه رفيقه يقول له : هل مع ابطائك حصل صيد ينفع ، فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها السعادة فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل .

ووجد بأطفيح(٢) عند عطار عدة خوابى مملوءة بلحم الآدمى وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجذب أن يهزل الناس وكان جماعات من الفقراء قد آووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين ، يتصيدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا ، ووجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شئ كثير ، وخبرنى الثقة الذى وجد فى بيوتهم أربعمئة جمجمة .

ومما شاع وسمع من لفظ الوالى أن امرأة أتته سافرة مدعورة تذكر أنها قابلة ، وأن قوما استدعوها وقدموا لها صحنًا فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فألفته كثير اللحم ، مباينا اللحم المعهود فتقرزت منه ثم وجدت خلوة

(٢) من قرى مركز الصف بالجيزة . القاموس الجغرافى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم ، فقالت انها فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هي معلقة اربا ، فقامت القايلة الى الخزانة فوجدتها أنابير لحم فلما قصت على الوالى القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه فى خفية بثلثمائة دينار ليحقق بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ، أن امرأة ذات مال ويسار كانت حاملا وزوجها غائب فى الخدمة وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هى عادة الجبالى فألقته لذيذا فاستزادتهم ، فزعموا أنه نفذ فسألته عن كيفية عمله فأسروا اليها أنه لحم بنى آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها فضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جوارىها خوفا منها ؛ فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد فى جوفها .

ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظاهره وانما هو شىء صادفناه اتفاقا بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتعين ذلك بدار الوالى فانه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار؛ وقد يوجد فى قدر واحدة اثنان وثلاثة وأكثر ، ووجد بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخا بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء .

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع فى حبالتهم شيخ كتبى بدين ممن يتبيعنا الكتب فأفلت بجريعة الذقن * وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع فى حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير ! وحكى لى من أثق به أنه اجتاز على امرأة تجرية (٣) وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهى تأكل من أفخذه فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها ، وكثير ما يدعى الأكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ، ورئى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت انما هو ولد ابنتى وليس بأجنبى منى ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيى *

وأشباه هذا كثير جدا حتى انك لا تجد أحدا فى ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى أرباب الزوايا والنساء فى خدورهن *

ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم * وهذه البلية التى شرحناها وجدت فى جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي *

وخبرنى بعض أصحابى وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك * وأعجب ما حكى لى أنه عاين رؤس خمسة صغار مطبوخة فى قدر واحدة بالتوابل الجيدة * وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فانى وان كنت قد أسهبت أعتقد أنى قد قصرت *

(٣) من قبائل تجرى Tigre الحبشية أى أصلها حبشى *

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الآجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار .

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا ، فأمر لا يطيق عمله الا الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر .

فالذى شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذا الحال ، وكان يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة ، وأما مصر فليس لموتها عدد ويرمون ولا يوارون . ثم بأخرة عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين وفيها الميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وأما الضواحي والقرى، فانه هلك أهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضا فلم يبق فيها الا محلة القسم وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طرى وربما وجد في البيت أثائه وليس له من يأخذه .

حدثنى بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في الأرض ولا طائرا في السماء فتخللنا البيوت؛ فألفينا أهلها كما

قال الله عز وجل : «**جعلناهم حصيدا خامدين**» فتجد ساكنى كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده ، قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربعمائة دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها فى الخراب ، وان الحائك ميت وأهله موتى حوله ، فحضرنى قوله تعالى : «**ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون**» قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذى قبله ليس به أنيس وهو مشجون بموت أهله ، قال : واحتجنا الى الاقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترفع لحوم أهلها *

ومن عجيب ما شاهدت أثنى كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا فى نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر ، وفى غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى فى الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بأنابيش العنصل(٤) وخبرت عن عياد بفرضة تنيس أنه مر به فى بعض نهار أربعمائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصرة ، وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان طلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيهم *

وأول من هلك فى هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها

(٤) العنصل بفتح العين وضم الصاد أو فتحها البصل البرى والجمع عناصيل

(ابن منظور) *

كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى
انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم
والغرب واليمن ومزقوا كل ممزق *

وكثيرا ما كانت المرأة تملص من صبيبتها في الزحام
فيتضرون حتى يموتوا *

وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله ،
حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض على
جارتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جارتين
أحدهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهما *

وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون
البلوغ بخمسة دراهم فعرفت أنها أن ذلك حرام ، فقالت خذها
هدية وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة
على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق
عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك *

وأعجب من جميع ما اقتصصناه أن الناس مع ترادف هذه
الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يراعون منغمسون في
بحر ضلالاتهم ، كأنهم هم المستثنون * فمن ذلك اتخاذهم بيع
الأحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان
منهم من يزعم أنه افترض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين
كل ذلك بالكسر (٥) *

وأما خراب البلاد والقري وخلو المساكن والدكاكين
فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها وناهيك أن
القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر

(٥) أى بمبلغ يسير أى كسر الدرهم أو الدينار *

عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد، وأما مصر
فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس
وما تأخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعد ما كان كل
قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس، حتى ان الرباع والمساكن
والدكاكين التى فى سرة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب
وان ربعا فى أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا
كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت من يحرس الموضع *

ولم يبق لأهل المدينة وقود فى تنانيرهم وأفرانهم
وبيوتهم الا خشب السقوف والأبواب والزروب (٦) *

ومما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين مازالوا
مجدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب
متجره فى القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه
بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف * فتبارك
من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط *

وأما خبر النيل فى هذه السنة ، فإنه احترق فى برمودة
احتراقا كثيرا وصار المقياس فى أرض جزر وانحسر الماء عنه
نحو الجيزة ، وظهر فى وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات
أبنية وتغير الماء فى ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف
أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الأيام ظهرت وكثرت
كالتى ظهرت فى أبيب السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد
الى آخر شعبان ثم تناقصت الى أن ذهبت وبقي فى الماء أخيرا
نباتية منبثة فقط وطاب طعمه وريحه ثم أخذت فى رمضان

(٦). جمع زريبة وهى مكان الماشية والدواب *

تنمى وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه ، فقام فيه ابن أبى الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ فى زيادة ضعيفة بأضعف من السنة الخالية ولم يزل فى زيادة ضعيفة الى ثامن ذى القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد اصبعاً ثم وقف ثلاثة أيام ؛ فأيقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ فى زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذى الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعاً وست عشرة اصبعاً ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ، ومس بعض البلاد محلة القسم فكانما زارها طيف خياله فى الحلم .

وانما انتفع به ما كان من البلاد مطمئناً فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها ، غير أن القرى خالية من فلاح أو حراث أصلاً فهم كما قال الله تعالى : « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » ، وانما أرباب الحراث يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين ديناراً والهزيل بدون ذلك وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته ؛ اذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها ضوى وعطب .

ونهاية سعر القمح فى هذه السنة خمسة دنائير ، وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنائير .

ومن الله سبحانه يرجي الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده .

الفصل الثالث

فى حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ودخلت هذه السنة والأحوال التى شرحناها فى السنة الخالية على ذلك النظام أو فى تزايد ، الى زهاء نصفها فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب وتناقص أكل بنى آدم ثم انقطع خبره أصلا .

وقل خطف الأطمعة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك (١) وقتلهم من المدينة ، وانحطت الأسعار حتى عاد الازدب بثلاثة دنائير لقلّة الأكلين لا لكثرة المأكول ، وصفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة وآلف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعى .

وحكى لى أنه كان بمصر تسعمائة منسج للحصر ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك .

(١) المقصود أهل البلاد وليس الممالك . راجع مقدمة المحقق .

وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكى لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فآلهم أن يشتري من الشام دجاجا بستين دينارا ، وباعها بالقاهرة على القمطين بنحو ثمانمائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم أربعا واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا .

وأما الأفران فأنها توقد بأخشاب الدور ، فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ثم يشتري آخر ، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا .

وكثيرا ما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل أخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبييعها ثم يطرحها مهدومة وكذلك أيضا يفعلون بدور الكسرا .

وأما الهالالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس ، وإنما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيرا من أهلها موتى فيها . ومع ذلك فالقاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة .

وأما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى أن المسافر يسير في كل جهة أياما لا يصادف حيوانا إلا الرمم ما خلا البلاد الكبار كقوص وأخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية ، فإن فيها بقايا وأما ما عدا هذه وأمثالها فإن البلد الذي كان يحتوى على ألوف خال أو كالخالي .

وأما الأملاك ذوات الأجر المعتبرة ، فإن معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها إلا حراستها بسد أبوابها وتحصين مساكنها

أو اسكانها من يحرسها بأجرة ، اللهم الا ما كان من الملك فى قسبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة ، وأعرف ربعاً فى أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته فى الشهر مائة وخمسين دينارا ، فعادت فى هذه السنة الى نحو عشرين دينارا ، وآخر فى مثل موضعه كانت أجرته فى الشهر ستة عشر دينارا ، فعادت الى فويق الدينار ، وجميع ما لم تذكره على هذا القياس افهمه .

والذى دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كف وجرى له اسم فى الديوان وضمته الميضات فى مدة اثنين وعشرين شهرا أولها شوال من سنة ست وتسعين ، وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين ، مائة ألف واحد عشر ألفا إلا أحادا وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دارهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من اكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جدا فى جنب من هلك واكل فى سائر البلاد والنواحي والطرق وخاصة طريق الشام ، فانه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق الا ذكر أنها مزروعة بالأشلاء والرمم وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد لا سيما عند وقت الزراعة ، فلعله يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين ، وحكى لنا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا .

وباشرنا زراعة لبعض الرؤساء فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم ، هكذا مرات فى عدة جهات وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ،

وان تركة واحدة انتقلت في مدة شهر الى أربعة عشر وارثا ،
وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا الى
برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها ، وهذه برقة كانت مملكة
عظيمة وخربت في زمن اليازوري (٢) وعلى يديه ، وكان
وزيرا ظالما ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية ،
وكان هذا الحادث تقاص في الطبيعة *

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن
ينتابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل زبونه ذو
شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصل في المنزل أغلق
الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ومرت المريض خصيتيه
غير أنه لم تكن له معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجها
فتسمع الناس ودخلوا ، فخلصوا الشيخ وبه رمق يسير
وقد كسرت ثنيته وحمل الى منزله مغشيا عليه وأحضروا
الفاعل الى الوالى فسأله ما حملك على ما فعلت ، فقال :
الجوع فضربه ونفاه *

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين
من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس ان حدثت
زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس ، فهبوا من مضاجعهم
مدهوشين وضجوا الى الله سبحانه ولبثت مدة طويلة وكانت
حركاتها كالغريزة أو كخفق جناح الطائر وانقضت على ثلاث
رجفات قوية مادت بها الأبنية واصططفت الأبواب وصرصرت
السقوف والأخشاب وتداعى من الأبنية ما كان واهيا أو

(٢) الحسن بن على بن عبد الرحمن ، أبو محمد اليازوري وزير من الدهاء ولى في
مازور (من قرى الرملة بفلسطين) سكن الرملة وولى الحكم بها واتصل بالمستنصر
الفاطمي فاستوزره سنة ٤٤٢ هـ وجعله قاضى القضاة ، وهو الذى دبر فتنة البساسيري
وأشاره على العباسيين واستمر في الوزارة الى أن قبض عليه المستنصر بسبب وشاية
وقتل سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، الإعلام للزركلي ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ *

مشرفا عاليا ثم عاودت فى نصف نهار يوم الاثنين ، الا أنها لم يحس بها أكثر الناس لحفائها وقصر زمانها وكان فى هذه الليلة برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفى نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الأنفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الأخبار تتواتر بحدوث الزلزلة فى النواحي النائية والبلاد النازحة فى تلك الساعة بعينها ؛ ولذا صح عندي أنها حركت فى ساعة واحدة طابقة من قوص الى دمياط والاسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأسم لا تحصى ، ولا أعرف فى الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فانها لم تنك فيه الا ما لا بال ، كانت نكايه الزلزلة ببلاد الافرنج أكثر منها فى بلاد الاسلام كثيرا .

وسمعنا أن الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها الى جزيرة قبرص ، وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفريق فى مواضع وصارت فرقه كالأنطواد وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ووردت كتب من الشام ودمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة . ومما اتصل لى من ذلك كتابان أوردتهما بلفظهما .

نسخة الكتاب الوارد من حماه

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت زلزلة ، وكادت الأرض تسير سيرا والجبال تمور مورا وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة وأتت دفعتين فى ذلك الوقت ، أما الدفعة الأولى فاستمرت بمقدار ساعة أو تزيد

(*) يظم الناء وتسكين النون .

عليها ، وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها فلقه حماء مع اتقانها وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلمك مع قوتها ووثقاتها ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة الى الآن ما أذكره .

ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في علمها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم أيضا وقت صلاة العصر وصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الطوسة والبيمارستان جميعه وعدة مساكن تساقطت على أهلها وهلكوا .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق

المملوك ينهى حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر وأقامت مدة . قال بعض الأصحاب : انها مقدار ما قرأ سورة الكهف ، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم . ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع واحدى المآذن وتشقق أخرى وفيه الصاحى يعنى النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور .

وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصعد كذلك ولم يبق بها الا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين ونابلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر أن القدر سالم والحمد لله .

وأما بيت جن فلم يبق منه الا الأساس والجدران وقد
أتى عليها الخسف ، وكذلك أكثر بلاد حوران غارت لا يعرف
لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية . ويقال ان
عكله سقط اكثرها وصدر ثلثها وغرفة خسف بها وكذلك
صافينا .

وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين
جبلين يجمع منه الريباس الأخضر ، فيقال ان الجبلين انطبعا
على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتى رجل وقد أكثر
الناس فى حديثها .

وأقامت بعد ذلك أربعة أيام تحدث فى النهار والليل .

ونسأل الله لطفه وتديره وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابنى فى الطب
وصلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور
القول عن العيان فأخذنا أن بالمقس تلاقية رمم كثيرة فخرجنا
اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة ، يكاد يكون ترابه
أقل من الموتى به نحس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا
فصاعدا وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده .

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها
وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيد من الكتب .
أما انها سككت عنها أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه أو يكون
ما شاهدناه مخالف لما قيل فيها والحس أقوى دليلا من السمع ،
فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ
فيما يباشره ويحكىه ، فان الحس أصدق منه .

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج ان أمكن فمن ذلك عظم
الفك الأسفل ، فان الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل

وثيق عن الحنك وقولنا الكل انما نعى به ها هنا جالينوس وحده فانه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عليه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج الى لسان العرب *

والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على الفى جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ، ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيانه وكذلك فى أشياء أخرى غير هذه وليت مكنننا المقادير بالمساعدة ووضعنا مقالة فى ذلك تحكى فى ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس * ثم انى اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها ، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع أحواله الا قطعة واحدة *

وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ، ثم انى اعتبرته فى جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته فى سائر الجثث على ما قال الا فى جثتين فقط فانى وجدته فيهما عظما واحدا وهو فى الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل *

ثم اننا دخلنا مصر فرأينا منها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مفتحة بالزحام ، والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر

سبيل فى بعض الأحياء ، وان المار فيها ليستوحش ومع ذلك ،
فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا
الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا الأقطار كلها
مفتصة بالجثث والرمم وغلبت على الآكام بحيث جلتها
وكادت تغلب على نرابها ورأينا فى هذه الأسكرجة وهى
وهدة عظيمة حينما أشرفنا عليها الجماجم بيضا وسودا ،
ووجدنا بعضها على بعض طبقات وقد أخفى كثرتها
وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رءوس لم يكن معها أبدان
يشبهها من ينظرها ببطين قد قطع وجمع حتى صار كالبيدر ،
ثم رأيتها بعد أيام وقد عرقتها الشمس وابيضت فشبهتها
ببيض النعام المتراكم .

ولما رأيت خلو تلك الحارات والأسواق من الناس وامتلاء
تلك الصحارى والآكام ، خيل الى أنه سفر ارتحل فأخلى مكانا
وشغل آخر هذا ، مع أنه اية جهة نحاه القاصد صادف فيها
ما خكيننا وأضعافه .

ووجد فى ذى الحجة بمصر امرأة ذبحت صبيا لتأكله
فأخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها
ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة . ومن عجيب الكائنات
فى هذه المدة أن مولودا فى سبع وتسعين ولد براسين وولد
مولود آخر أبيض الشعر ورأيته وليس هو كبياض الشيب ،
بل يحيل الى صهوية ما . ولدت فى هذه السنة بغلة ولدت ميتا
وبقى فى دار الوالى أياما كثيرة ، وفى سنة ثمان وتسعين
وجدت سخله ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط
دقيق وأحضرت بدار الوالى مرات وآخر ما أحضرت وعمرها
أربعة أشهر .

وأما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار
أما أولا ، فانه احترق في طوبة ثم تزايد احتراقه حتى صار
مخاضات للناس والدواب وظهرت الحفرة فيه في جمادى
الآخرة الكائن في برمهاة وتزايدت جدا في رجب حتى
ظهرت في طعمه ولونه وريحه ثم تناقصت حتى ذهب أصلها
وانتهى احتراقه في رمضان ، وانحسر عن المقياس نحو
ثمانمائة ذراع ، وأطالع أبى الرداد باستقرار الماء يوم
الثلاثاء لخمس بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من
سنة ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة
الخالية ذراعين ، وابتدأ في الزيادة في السنة الخالية من
هذا اليوم ، فأما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى
الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة سوى
أصابع ، حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا أن
حادثا وقع بفوهته وعند مبدا جريته ، ثم أخذ في الزيادة
حتى انسلخ أبيب وهو على ثلاث أذرع ووقف يومين ؛ فاشتد
هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع
بقوة وزيادات متداركة وجبال من المياه متدافعة ؛ فزاد
ثمانى أذرع في مدة عشرة أيام منها ثلاث أذرع متواليه ،
وانتهى في رابع توت وهو الثانى عشر من ذى الحجة الى
ست عشرة ذراعا تنقص اصبعاً وقام يومين ، ثم أخذ ينحط
متباطئا وينصرف رويدا . فهذا ما قصدت اقتصاصه من
أحواله هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد
النبي الأمى وعلى آله الطيبين الطاهرين .

كتبه مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف
ابن محمد البغدادي في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة .

الكشاف

(١)

- الأسرائيلي : ٦٩
 الاسفندقور : ٨٥
 اسكرجه قرعون : ١٥١
 الاسكندر : ١١٢ ، ١٠٠
 الاسكندرية : ٢٨ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١١٢ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 اسسنا : ٥٥
 الاسهال : ٦٩
 اشعب : ٧٣
 الاصباغ : ١١٥ ، ١١٦
 الاممعى : ٧٣
 اطيح : ١٣٥
 افاذيمون : ١٢
 الاثروديسي : ١١٢
 افريقيا : ٢٠
 الافغان : ٢٩
 الاقيون : ٧٦
 الافاقيا : ٧٧
 اقباط
 انظر
 قبط
 الأقرباين : ٢٠
 أكل لحوم البشر : ٢٠
 الأملاح : ٢٧
 الأنبارى ، كمال الدين عبد الرحمن : ٣٦
 الأندلس ، ابن سعيد : ٢٩
 الانطاكي ، داود : ٢٢
 الانعاط : ٨٥
 اهرام : ١١ ، ١٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٢
 الابار : ١١٤
 ابراهيم (عليه السلام) : ٩٤
 ابن اسحق ، حنين : ٢١
 ابن با شناد : ٣٩
 ابن برهان : ٣٧
 ابن بطوطة : ٢٩
 ابن البعنى : ٣٥
 ابن اليطار : ٢١ ، ٢٢
 ابن جبير : ٢٨
 ابن جليل : ٢١
 ابن حمزة ، عمر : ٣٧
 ابن سكينه : ٣٩
 ابن سحجون : ٦٧
 ابن سلام : ٤٠
 ابن سناء الملك : ٤٢
 ابن سيرامون : ٢١
 ابن سيفنا : ٣٩
 ابن فضلان : ٢٩ ، ٣٠
 ابن فنيبة ، غريب : ٤٠
 الابنوس : ٧٧
 ابن يونس : ٤٠
 ابو الناسم الشارعى : ٤٣
 ابو الهول : ٩٦
 ابايك شهاب الدين : ٤٦
 اترج : ٧٤ ، ٧٥
 الاناب : ٦٣
 الاحاجى : ٦٢ ، ٧٩
 الاجنك : ١٩
 ادريس (النبى عليه السلام) : ٩٣
 ارزتجان : ٤٦
 ارسطو : ٦٣ ، ١٠٤ ، ١١٢

(ب)

البجعة : ٧٠

بابل : ١١٢

بارين : ١٤٨

الباقال : ٧٨

البياكللاء : ٦٩

البياغلي : ٦٩

البامية : ٦٠

بانئياس : ١٤٨

بحران : ٩٤

بخارى : ٢٩

بختنصر : ١٠٠

البدة : ٩٤

البردى : ١٣٠

برقة : ١٤٦

البسنام : ٦٧

بصل : ٧٠ ، ٦٨ ، ٢٥

بطليموس : ١٣٠

البطيخ : ٧٤ ، ٧٨ ، ١٥١

البطيخ الرقى : ٧٨

البطيخ الرقشى : ٧٨

البطيخ العبدلى : ٧٧ ، ٧٨

البطيخ الغربى : ٧٨

بعلبك : ١٤٨

البغال : ٢٤ ، ٨٤ ، ٨٦

بغداد : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ١٤٠

المعدادى ، عبد اللطيف : ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٣٨

البقر : ٨٣ ، ٨٦

بقرات : ١١٢

بلاد نعمنم : ١٩

البلح : ٦٢ ، ٧٢

البلسان : ٦٥ ، ٦٦

البندقية : ١١٩

البفسج : ٧٩

بنو العباس : ١١٢

البهيق : ٢٧

بوصيد : ٨٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٥٠

البوطة : ١٢٣

بولس : ١٧

بيت جن : ١٤٩

بيتس ، جوزيف : ٢٣

(ت)

التبريزى ، الخطيب : ٣٨

تبين : ١٤٨

التجرائين (التجريين) : ١٩

الترسة : ٨٨

الترفيد : ٨٠

الترمس : ٧٧

التفاح : ٧٥ ، ٧٧

التلويع : ٨٢

التماسيح : ٢٧ ، ٨٤

التمر : ٧٥

تمساح برى : ٨٥

تهامة : ٦٧

التوراه : ١٧ ، ١١٢

التيفاش : ٢٧

التين : ٦٥

(ث)

ثعبان الماء : ٨٨

الثوم : ٦٨

(ج)

جامع ابن طولون : ١٣٧

جالينوس ، كتاب : ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠

الجاموس : ٨٦

جبل القمر : ٥٦

جبل لبنان : ١٤٩

جدة : ٢٨

الخس : ١١٨
 الخشخاش : ٧٦ ، ١١٩
 الخشخشية : ١١٩
 الخشكان : ١٢٠
 حط الاستواء : ٥٦
 الخطمي . ٦١
 الخنزير : ٨٦
 خوارزم . ٢٩
 خرخ : ٧٩
 الخيار ٦٧ ، ٧٧
 خيار شمندر ٧٩
 الحيل ٨٤

(د)

الدار صيني : ٢٧
 الدياء : ٧٨
 الدجاج : ٨٨
 الدخن : ٧٦
 درب القالوذج : ٣٦
 الدلب : ٦٣ ، ٧٩
 الدلفين : ٨٤
 الدلينس : ١٢٢
 دمشق ١١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
 ٦٨ ، ٧٠ ، ٩٤
 دموة : ٩٩
 دمياط : ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٢٣ ،
 ١٤٥ ، ١٤٧
 دميرة : ٧٨
 الدند : ٦٢
 دنفيق : ٥٩
 الدولة الطولونية : ١٠
 الدولة الفاطمية : ١٠
 الديس : ١٣٠
 الدينوري ، أبو حنيفة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٧٣ ، ٧٧
 ديوسقوريدس : ٦٩ ، ٨٥

جراجوس : ٥٩
 جرجير : ٨٦
 الحزام : ٢٧
 الجزر : ١١٩
 الجلا : ١٩
 الجلاب : ١١٩
 جلال مظهر ، ٣١
 جله : ٨١
 الجمل : ٨٦
 الجميز : ٦٤ ، ٦٥ ، ١١٤
 الجوز : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧
 الجيزة : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٣٥ ، ١٤١

(ح)

حارة الساسة : ١٤٤
 حارة السحرة : ١٤٨
 الحبشة : ١٠٩
 الحجاز : ١٣٠
 الحديث : ٣٥
 الحراجية : ٥٩
 الحرثون : ٨٥
 الحصرم : ١٢١
 حلب : ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤١
 الحماس : ٢٤
 الحمام : ٦٣
 حماة : ١٤٨
 الحمير : ٨٣
 حوران : ١٤٩

(خ)

الحبازي البسناني : ٦١
 الخبز : ١٢٢
 حبيص : ٧٢ ، ١١٨ ، ١١٩
 خراسان : ٣٦ ، ١٤٠
 الخردل : ٧٢
 الخروب : ٧٩
 خروب القرط : ٧٧

(د)

السماق : ١٢٣

الذرة : ٧٦

السمافيه : ٦٨

سماني الغيط : ١٢٣

(ر)

السمرة : ١١

الرتيلاء : ٦٤

السمانير : ١١١

رجلة : ١١٩

السمبوسك : ١٢١

السمداب : ٦٥

الرعاد : ٨٧

السنط : ٧٦ ، ٧٧

رغيف الصينية : ١١٩

السودان : ٥٧ ، ٦١

رمان : ٧٩

السويقي : ٦٩ ، ٨٦

الروم : ١١٢ ، ١٤٠

سبيوية : ٣٨

(ز)

السبيرج : ١٢٠

الزبل : ٨٢

(ش)

الزعفران : ٦٩

الشمام : ٢٨ ، ٣٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٥ ،

رثاق البركة : ١٤١

٧٦ ، ٧٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٤٧

الزنبق : ٧٨

الشدة المستنصرية : ١٠

الزنجبيل : ٢٢ ، ٧٠ ، ١١٩ ، ١٢٠

شرق أفريقيا : ٢٩

الزنجبيلية : ١١٩

الشعراني : ٥٩

الزهرأوى ، خلف بن عباس : ٢١

الشعري : ٦٧

(س)

الشلق : ٧٨

ساسى : ٨٠

سنهور : ٥٩

السامرة : ١١

الشهرستاني : ١٢ ، ١٦

السبحق : ٦٩

الشوشنديا : ٦١

ست المنوية : ١١٩

الشوكة المصرية : ٧٦

ستيفن ، كتاب : ٢١

سبح المعالي : ٦٨

(هـ)

الصايون : ١١٨

سحليه : ١١٢

الصابئة : ١٢ ، ١٦ ، ١١٢

السدر : ٧٩

الصيا : ٥٨

السدرية : ٦٢

الصبر : ١٢٢

السرب : ٨٨

الصحناء : ١٢٢

السريثس : ٨٨

الصعيد : ٥٧ ، ٥٨ ، ٨٥

السفرجل : ٧٩

صقلية : ٢٨

السلجم : ٦٧ ، ١١٨

سلحفاة : ٨٨

صلاح الدين ، يوسف بن يونس : ٤١ ،

السمان : ٧٤

عمرو بن العاص : ٩٨
عمود السوارى : ٩٧ ، ٩٨
العهد القديم : ١٧
العود : ١١٩
عذاب : ٢٨
عين شمس : ٩٦
(غ)
الغريبة : ١٤٥
غرناطة : ٢٨
(ق)
الغار : ١٢٣
فارتيميا : ٢٠
فارس : ٢٩ ، ٦٣
الفارسي ، ناصري خسرو : ٢٨
الفجل : ١١٨
فراييج : ٨٠ ، ١٤٤
الفريس : ١١٢
فريس البحر : ٨٦
الفرنج : ٤٣
الفسقيق : ٧١ ، ١١٩ ، ١٢٠
الفسقية : ١١٩
الفسطاط : ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٩٠ ، ١١٢
الفنوص ، فناء : ٧٧ ، ٧٨
فلج أرسلان : ٤٦
القلسقة : ٤١
الفلفل : ١٢٠
القول : ٧٨
النولجا : ٢٩
القيوم : ١٣٨ ، ١٤٥
(ق)
الغار : ١١٠
القاضي الفاضل : ٤١ ، ٤٢
القاهرة : ٨٧ ، ٩٠ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤١
القيود : ٧٧

٤٤ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٨
الصيدلة : ٢٠
الصين : ٢٩
(ط)
الطلب
الطلمسات : ٣٩
طنجة : ٢٩
طوخ : ٥٩
الطوسه : ١٤٨

(ظ)
الظاهري ، ابن حزم : ١٢

(ع)
العادل : ٤٥
العادل ، ملك : ٩
عازي يمون : ٩٣
عباسة : ٥٩
عبد الله ، موفق الدين : ٣٥
العبدلاوي ، البطيخ : ٧٧
العبدري : ٢٩
العجوة : ٧٥
العراق : ٢٨ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨

١١٢ ، ١١٧
العزير عثمان بن يوسف : ٩٤
عسنان : ٦٤
عفس : ٢٢
عكا : ٤١ ، ٤٢
عكلة : ١٤٩
علاء الدين داود بن بهرام : ٤٦
علم الاغدية : ٢١
علم الصيدلة : ٢١
على بن رضوان : ٧٠
العماد الكاتب الاصبهاني : ١٠
عمي بن الخطاب : ٩٨

- الفقد ، الخيار : ٧٧
الغشاء : ٦٠
القدس : ٤١
فدور الهراس : ١١٥
النيران : ٣٥ ، ٣٦
القراءات : ٣٥
قراجا : ٩٨
القراسيا : ٧٩
قراقوش : ٨٩
المقرط : ٧٥
المقرط : ٢٢ ، ٧٦
المرفقة : ١٢٠
القرم : ٢٩
القرويني ، الرضى : ٣٩
القسب : ٧٥
القسط : ٦٨
المسططينية : ٢٩
القطران : ٢٧
القلزم : ٨٥ ، ٩٥
القلعة : ٩٠
القلقاس : ٢٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
قمولة : ٥٩
قوص : ٢٨ ، ٥٩ ، ١١٠ ، ١٤٧
القولنج : ٢٦
(ل)
الكاتب ، عماد الدين : ٤١
الكتان : ٨٠
كرانشوفسكى : ٢٧
الكرخى ، ابن عبيدة : ٣٨
كردستان : ٢٩
الكزبرة : ١٢٠
الكعبة : ٩٤
الكلف : ٢٧
الكنثرى : ٧٩
الكمون : ٢٧ ، ١٢٠
خيقباز بن كيخسرو : ٤٦
الكيمياء : ٣٩ ، ٤١
(ل)
اللبخ : ٦٢ ، ٦٣
اللقا : ٦٦
لجاة : ٨٨
اللويبا : ٦٠ ، ٧٧
اللوزة : ٦٢ ، ٧٩ ، ١١٩
الليمون : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ١١٩
(م)
ماء ورد : ١٢١
الماش : ٧٦
المتنبي : ٣٦
المج : ٧٦
المجوس : ١١٢
المدائن : ١١٢
المريس ، رياح : ٥٩
المريس : ٥٩
المستنصر بالله : ٤٨
مسجد الخلفية : ٣٧
مسك : ١٢١
المسلة : ٩٧
المسيد : ٥٩
المصطكى : ١٢٠
المغرب : ١٣٠
المفرجية : ٥٩
المقامات : ٣٦
المقدسى : ٣٥
المفسى : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٩
المطعم : ٥٩ ، ٩٠
مكة : ٩٤
الملاح : ١١٧
ملطية : ٤٦
الملوخية : ٦١
المماليك : ٩

- هرماس : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٩٣
 هرميس
 انظر هرماس
 هرميس
 انظر هرماس
 الهوى : ٢٨
 هريسة : ١١٩
 الهاللية : ١٤٤
 الهند : ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٣
 (و)
 الورد : ٧٨
 الوردية : ١١٩
 الورل : ٨٥
 الوكيل : ٣٥
 (ى)
 اليازورى : ١٤٦
 الياسمين : ٧٨
 يقطنين : ٧٨ ، ١١٩
 اليمن : ٦٧ ، ١٣٠
 ينطوالميس : ٨٦
 اليهود : ٢٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١٤٦
- منف : ٥٩ ، ٩٩ ، ١١٤
 الموز : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣
 موسى بن ميمون : ٤٢
 الموهل : ٤٠ ، ١٤٠
 (ن)
 نابلس : ١١ ، ١٤٨
 النارنج : ٧١ ، ٩٤
 الناصر صلاح الدين : ٤٥
 النيق : ٧٩
 نجد : ٦٧
 النرجس : ٦٩
 النصارى : ٢٤
 نوح (عليه السلام) : ٩٤
 النيدة : ١١٨ ، ١٢٣
 نيقولاوس : ٦٣
 النيل : ٢٧ ، ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،
 ١٤١ ، ١٥٢
 تيمرشت : ٨٦
 (ه)
 الهسال : ١٢٠

اقرأ في هذه السلسلة

جوزيف دامرس
سبع معارك فاصلة في التصور
الوطني

د. ليتواير تشامبرز/رايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية إزاء مصر

د. جون شتدلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غيبريل ومبة
أثر الكوميديا اللاهية لاداتي
في الفن التشكيلي

د. رمسيس عوض
الأنثروبولوجيا قبل الثورة
الباشقية ويعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز في عالم
مختبر

فرانكلين ل. ياور
الفكر الأوروبي الحديث ٤ ج

شوكيت الربيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

د. محي الدين أحمد حسين
الكشفة الأسرية والأبناء الصغار

ج. دانيال اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصص

د. جرمين دورهنر
الحياة في الكون كيف نشأت
وأي توج

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الإستراتيجي
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
إدارة الصراعات الدولية

د. مصطفى عناني
البيروكيميوت

محمدة من الكتاب اليابانيين القدماء
والحديثين

مختارات من الأدب الياباني
« الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة »

بيل شول وأدبيات
القوة النفسية للأهرام

د. صفاء خلوصي
فن الترجمة

والف في مالتو
تولستوي

مكتوب برومبير
ستلدا

فيكتور موجد
رسائل وأحاديث من المظلي

فريز هيرنبورج
الجزء والكل « معادلات في مضمار
الفيزياء الحديثة »

سندى هوله
الترات القامض ٥ ماركس
والماركسيون

ف. ع. أدنكرت
فن الأدب الروائي عند تولستوي

هادي نعمان الهيتي
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه
وسأله »

د. نعمة رحيم الغزالي
أحمد حسن الزيات كاتباً وثاقداً

د. فاضل أحمد الطائي
أعلام العرب في الكيمياء

جلال العنشري
فكرة المسرح

منرى باريبر
الجسيم

السيد عليوة
صنع القرار السياسي في
مؤسسات الإدارة العامة

جاكوب برونولسكي
التطور الحضاري للإنسان

د. روجر ستروجان
هل تستطيع تعليم الأخلاق
للإنسان ؟

كاثي ثير
تربية الدواجن

٥١ سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة

٥١ سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة

٥١ سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة

٥١ سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى
٥١ رادو نكايوم حادوتسكي
الإلكترونيات والحياة الحديثة

ألدس هكسلي
لقطة مقابل لقطة

٥١ و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايموند وليامز
الكتابة والمجتمع

د. ج. فرييس ٥١ ج. ديكنستر هوز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستريدل راي
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الإنجليزية

لويس فانجاس
المشهد إلى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د. قدرى حفيظ ولحرون
الإنسان المصري على الشاشة

أرلج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما

ديفيد وليام ماكورال
مجموعات النقود ٥ صيانتها
كصناعاتها - عرضها

عزير الضراي
الموسيقى كصناعاتها ومنطق

محسن جاسم الموسوي
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لمويس
الإنسان ذلك الكائن الغريد

جول ويست
الرواية الحديثة ٥ الإنجليزية
والفرنسية

د. عبد المعطي شمراوي
المسرح المصري المعاصر
أصله وديانته

أنور المعداوي
علي محمود طه الشاعر والإنسان

- جابريل باير
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر
الحديثة
- انطونى دى كرسينى وكينيث هينوج
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة
- دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما
- زافيلسكى فـ س
الزمن وقياسته (من جزء من
البليون جزء من الثانية وحتى
مليارات السنين)
- مهندس ابراهيم القرصاوى
اجهزة تكييف الهواء
- بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والاضطباط
الاجتماعى
- جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور
الوسطى
- سـ مـ پورا
التجربة اليونانية
- دـ عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر
الاسلامية
- رونالد دـ سمپسون ونورمان دـ
اندرسون
العلم والطالب والمدارس
- دـ انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر
- ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية
- فرد سـ مـ هيس
تبسيط الكيمياء
- جون لويس يوركهارت
العادات والتقاليد المصرية
من الامثال الشعبية فى عهد
محمد على
- الان كاسبيار
الذوق السينمائى
- سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر
بين النظرية والتطبيق
- فريد مويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكويتية
- حسين حلمى المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية
والتطبيق) السينما والتليفزيون
- ٢
- روى رويرتسون
الهيرويين والايذز واثرها فى
المجتمع
- دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية - نظرة على
حيوانات افريقيا
- هاشم النحاس
تجيب محفوظ على الشاشة
دـ محمود سرى طه
- الكومبيوتر فى مجالات الحياة
- بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية
- موريس فيدورفيتش سيرجيف
وطائف الاعضاء فى الالف
اليام
- ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع
- ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة
- احمد محمد الشنوائى
كتب غيرت الفكر الانسانى
- جون رـ بورر وميلتون حرلدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٢ جـ
- ارنولد توينبى
الفكر القاريضى عند الافريق
- دـ صالح رضا
ملاحم وقضايا فى الفن
التشكيلى المعاصر
- مـ هـ كنج وآخرون
القضية فى الميدان السامية
- جورج جاموف
بداية بلا نهاية
- دـ السيد طه السيد ابو سديرة
الحرف والصناعات فى مصر
الاسلامية منذ الفتح العربى
حتى نهاية العصر الفاطمى
- جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون ٣ جـ
- اريك موريس والان هو
الارهاب
- سيرل الدريد
اخفائون
- ارثر كينستل
القبيلة الثالثة عشرة ويهود
اليوم
- بـ كرملان
الاساطير الاغريقية والرومانية
الحديثة
- دـ ترماس اـ هاريس
التوافق النفسى - تحليل
المعاملات الانسانية
- لجنة الترجمة ،
المجلس الاعلى للثقافة
الدليل البيبلوجرافى
روائع الاداب العالمية جـ ١
- روى آرمن
لغة الصورة فى السينما المعاصرة
- ناجوى متديوب
الثورة الاجتماعية فى اليابان
- بول هاريسون
العالم الثالث قدا
- ميكايل المى وجيمس لفلوله
الانقراض الكبير
- آدامز فيليب
دليل تنظيف المآخف
- ليكتور مورجان
تاريخ النقود
- محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركستراالى
- ابو التاسم الفردوسى
الشاهامة ٢ جـ
- بيرتون پورتر
الحياة الكريمة ٢ جـ
- جاك كرايس جودير
كتابة التاريخ فى مصر القرن
التاسع عشر
- محمد فؤاد كراى
قيام الدولة العثمانية
تولى بار
- التمثيل للسينما والتليفزيون
تاجور ، شين ين بنج وآخرون
مختارات من الاداب الاسيوية
- ناصر خسرو هادى
سفرنامه
- نادين حورديمير زحريس اوجرت
واخرون
سقوط المطر وقصص اخرى
- احمد محمد الشنوائى
كتب غيرت الفكر الانسانى
- ٧ جـ
- جان لويس بورى واخرون
فى النقد السينمائى الروسى
- العثمانيون فى اربيا
بول كولز

كريستيان سليليه السيكاريو في السينما الفرنسية	د. بيارد نودج الأزهر في ألف عام	موريس بيد برادر مفتاح الخلود
بول وارن خفايا نظام النجم الأمريكي	ستيفن رانسيمان العمليات الصليبية	زيجمونت هين جماليات فن الأفراج
جورج ستايلر بين تولستوي ودوستويفسكي	ه. ح. ولز معالم تاريخ الإنسانية	جوناثان ريلي سميث الحملة الصليبية الأولى وفكرة المعروب الصليبية
يانكو لافرين الرومانتيكية والواقعية	جوستاف جرونباوم حضارة الإسلام	الفريد ج. بتر الكلائس القبطية القديمة في مصر ٢ ج.
محمود سامي عطا الله الفيلم التسجيلى	د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ رحلة بيروت إلى مصر والحجاز	ريتشارد شاخات رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف بتس رحلة جوزيف بتس	جلال عبد الفتاح الكون ذلك المجهول	ترانيم زواندشت من كتاب الأفستا المقدس
ستانلى جيه سولومون الواع الفيلام الأمريكى	أرنولد جزل وآخرون الطفل من الخامسة إلى العاشرة	الحاج يونس المصرى وحالات غارتيما
هارى ب. ناش الحصن والبنيان والسود	٢ ج. يادى أوتيمود	هربرت ثيلر الاتصال والهيمنة الثقافية
جوزيف م. يوجز فن الفرقة على الألف	أفريقيا - الطريق الآخر	برتراند راسل السلطة والفرق
كريستيان ديروش توبلكر إلهة الفرعونية	د. محمد زيهيم فن الزجاج	بيتر نيكولز السينما الخيالية
جوزيف يندهام موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين	برنسلار مالمينوفسكى للمسرح والعلم والدين	ادوارد ميرى عن النقد السينمائي الأمريكى
ليوناردو دافنشى فكرته التصوير	آدم متز الحضارة الإسلامية	نفتالى لويس مصر الرومانية
ت. ج. ه. جيمز كتوز الفراعنة	فانس بكارد انهم يصنعون البشر	ستيفن أوزمنت التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج.
رودولف فون هابسبرج رحلة الأمير رودولف إلى الشرق	عبد الرحمان عبد الله ناجما يوميات رحلة فانسكو ناجما	مورنى براغ وآخرون السينما العربية من الخليج إلى المحيط
٣ ج. مالكوم براندورى الرواية اليوم	أيفرى شاترمان كوئنا المتعدد	فانس بكارد انهم يصنعون البشر ٢ ج.
وليم مارسدن رحلة ماركو بولو ٣ ج.	سوندارى الفلسفة الجوهرية	جابر محمد الجزار مستريقت
هنرى بيريين أوتيج أوربا في العصور الوسطى	مارتن فان كريفند حرب المستقل	د. إبرار كريم الله من هم المتقار
ديفيد شنيدر نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر	فرانسيس ج. برجين الأمم التطبيقي	ح. س. فريزر الكاتب الحديث وعالمه
اسحق عظيموف العلم وأفاق المستقبل	عبد مياش البحرية المصرية من محمد على للمساعات	٢ ج. سوريل عبد الملك
رونالد دافيد لانج الحكمة والجور والمهابة	ح. كارفيل تبسيط المفاهيم الهندسية	هديث النهر من روائع الآداب الهندية
كارل بوبر بعثا عن عالم أفضل	توماس لينهارت فن التام والياتوميم	لوريتو تود مدخل إلى علم اللغة
فرمان كلارك الاتصال السياسى للعلم والتكنولوجيا	ادوارد دودونو التكثير المتجدد	اسحق عظيموف الشموس المتفجرة
	ويليام ه. مانيز ما هي الجيولوجيا	أسرار السوير ثوفا مارجريت روز ما بعد الحداثة

روبرت سكولز ولغرون الفاق انبي الخيال العلمي	ونفرد هولر كانت ملكة على مصر	السيد نصر الدين السيد اطلالات على الزمن الاتي
ب. س ديفين المفهوم الحديث للسكان والزمان	حنس هنرى برستد تاريخ مصر	ممدوح عطية البرنامج النووي الاسرائيلى والامن القومي العربى
س. هوارد انهر الرحلات الى غرب افريقيا	يون دامير الدقائق الثلاث الاخيرة	ليوبوسكالنا الحب
و. بارتوك تاريخ التراث في اسيا الوسطى	جوزيف وهارى فيلدمان دينامية الفيلم	ايغور ايفانوس مجلد تاريخ الادب الانجليزى
فلانيسير تيمانيسانو تاريخ اوروبا الشرقية	ج. كونتو الضبابية الفينيقية	هيربرت ريد التربية عن طريق الفن
ابرييل جاجارسيا ماركيز الجنرال في القمامة	ارنست كاسبرو في المعرفة الثالثة	وليام بيند معهم التكنولوجيا الحيوية
هنرى برجسون الفضيحة	فنت ا. كنفس ومسرح الثاني	الفين تولار تحويل السلطة
مصطفى محمود سليمان الزوال	جان بول سارتر وآخرون مختارات من المسرح العالمى	يوسف شرارة مشكلات القرن الحادى والعشرون والعلاقات الدولية
م. و. فراج شعير الهندس	ورالند وجاك يانسر الطفل المصرى القديم	رولاند جاكسون الكيمياء في خدمة الانسان
ا. ر. جونس المحيطون	نيكولاس ماير شولوكه هولز ميجيل دى ليهس الظفران	ت. ج. جيمر الحياة ايام الفراولة
ستيلو موسكاتير الضبابات السامية	جوسيفى دى لونا موسوليني	جرج كاشمان الاذن لتتسب الحروب
الهرت حورانى تاريخ الشعوب العربية	الويد جرايتز موسمارت	حسام الدين ريكيا التلون بروكتر
محمود لاسم الغلب العربى المكتوب بالفرنسية	على عبد الرؤوف النمبر مذكرات من الشعر السباني	لورا ف. فوجل المسيرة اليابانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٠٠/١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 5926 — 3

منزعه عن غريق على أقل تقدير، ومصر مقصر للرحالة
من الشرق والمغرب،

وقد ترك لنا هؤلاء الرحالة صور نابضة بالحياة لمصر في تلك العصور
الغابرة، صورة تفضل في كثير من الأحيان كتابات المؤرخين لأنها تنقل
مشاهدات حية رآها الرحالة بأعينهم وتسجل العادات والتقاليد
والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. وهي تفضل أيضاً كتب
التاريخ الرسمي لأنها تسجل وترصد بعض الجوانب من حياة الشعب
التي كثيراً ما أهملها المؤرخون التقليديون. ومن غير هؤلاء الرحالة في
العصور الوسطى عبر اللطيف البغدادي. وهو طبيب وعالم مسلم ولد في
بغداد وعاصر صلاح الدين الأيوبي، وعمل في خدمته في الشام،
ثم عمل في خدمة أودلوه في مصر. وكتابه، على صفحته، هام لأنه يتميز
بنزعة علمية في الوصف والبحث كما يتضح من اسمه اللطيف والاعتبار في
الأدور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، وهو يبدأ
كتابه باستعراض لخواص مصر العامة، ثم يعرض لنباتها وحيوانها، وقد
اهتم اهتماماً كبيراً بوصف الآثار الفرعونية التي يبدي أشد الإعجاب بها
ويسرد المعتقدات الشائعة حولها في عصره،
وقد انثر الكثير مما وصف بفعل الإهمال والتخريب، ولكني نعرف حجم
خسارتنا، نطالع وصفه للآثار القائمة بمرينة عين شمس، حيث يقول إن بها
تمثال كان ارتفاع الواحد منها يصل إلى ٣٠ ذراعاً،
أي حوالي ١٥ متراً، ويسجل أن بوابتها كانت لا تزال قائمة في عصره،
وقد اختفى كل ذلك اليوم. ولذا فقد باتت لهذا الكتاب أهمية كبيرة لدى
العنيين بالدراسات المصرية القديمة.